
معبد
الظلام
-رواية-
من تأليف:
غربي ليندة

ـ روايـــــــــــة:

ـ معـــــــبد الـــظــــــــلام

ــــ من كــــــتابة وتأليـــــف:

ــ غـــــربـــي لـــــــيندة

ــ الطبـــــــــعة الأولــــــى:2020م/2021م

إهداء

إهداء إلى كل معتوه علمني كيف أقف على قدماي بعد إنكسار ...

شكر

شكر خاص إلى نور عيناي والداي وكل من علمني لأصل إلى طريق العلم إلى كل من تعب لحروج هذا الحلم لطريق التحقق

مقدمة:

لكل معبد طقوس... فمعبد الألم طقوسه أقسى... لكن اليقين لا يعرف الانكسار... ولو بعد الرحيل... فبعض الموت الحياة... وبعض الحياة الموت... وأصعبها أن نعيش الحياة موتى... لذلك دع طبق الأمل... شبحا يقف بباب الفشل... حتى لو كان الرحيل أخذك عنده.وخط لوحة الحياة بلونها الأصلي... لا بألوان زائفة... غير صادقة مع فنك.

كم كانت تتعبها تلك الحروف التي تخط بلا رسالة مرسلة... انتظرت ساعات للإجابة عنها لكن... لا وجود للجواب... ربما لا يجدر بتلك الحروف الصغيرة أن تظهر إلى النور... إنها تعيدها دائما لرسم تلك اللوحة القديمة... التي تحتوي على لون واحد... لون تعيس... بليد... متعب لكل شيء.... لكنها بدت وكأنها تعرفه جيدا... بل إنها تعشقه حتى... إنها لوحة تعهدت أن تبقيها بداخلها... ربما تخرج ذات يوم... حينما يتغير ذلك اللون... أو ينفذ... إنها تخط بتلك الفرشاة... وبأنامل بريئة... تلون... إنها تضع على لوحة الألوان من بقعة... والعجيب... أنها من نفس اللون... إنها تتمتم قائلة:...

- أعلم أنك تحتسبني بداخلك اللعين...
- ولكن...
- لن أعشقك بعد الآن...

- فيجب أن نفترق.
- ذات يوم.
- أجل ذات يوم.
- سنعود غرباء...
- كما كنا
- لم تك
- لم تكن راضية بحبه ربما.. لكنها مجبرة... وكيف ترفض... وقد قيل أنه معيد... لا بد أنها تؤدي فيه مناسك الوداع الأخير... كلا... إنها لتزال تحاكيه... بطريقة لطيفة... تصنع منه رفيقا... ربما... تغازله... ربما... تعاتبه...،
- إنها تعود إلى تلك الزاوية... جامعة نفسها... بين ذراعيها الصغيرة... المتمنية الإفلات... إنها تراقب تلك اللوحة السوداء... لتزال فيها بقعة واحدة بيضاء...
- ترى لما لا تريد تلوينها... ؟!

- هل هي شيء مميز في لوحتها... ؟!

- لحظة... إنها تعاود التقدم منها مرة أخرى... تحمل فرشاتها... تغمسها خلسة في ذلك اللون المنفرد... إنه اللون الأبيض... الذي يخرج من داخلها النقي... لكن المؤسف في الأمر... أنها لطخت ذلك البياض... بفرشاتها التي غمست بالأسود... ليتها تتمكن من وضع لمسة أخرى على تلك اللوحة.... مثلا كلون آخر...

- سأتقرب منها أكثر... سأحاول أن تخبرني عن قصة تلك اللوحة... ولما اختارت تلك الألوان... رغم وجود الكثير من الألوان في علبتها...

- كنت أنظر إليها وإلى يداها الصغيرتان... وهي تتفنن مع ميلات رأسها... كانت فنانة بحركاتها...

- أجل...

- إنها مبدعة...
- في بعثرة شعرها بوثره... وسواده الليلي... وطوله السيلي... لم أستطع أن أبعد نظري عن بريقه... كان وجهها لا يظهر كليا... كان كالقمر بين السحاب...
- لكن...
- لا بد أن يظهر. ..
- أليس كذلك...
- إنها تدندن بأغنية لست أفهم كلماتها...

ـــ لكنها تخرج بلحن جميل جدا... مع تلك الحركات التي كانت ترفع بها شعرها عن وجهها... لكنه لم يظهر بعد...

- سأقترب أكثر...
- تقربت بضع خطوات...
- لتزال هي مع فنها المختلف... على لوحة مختلفة... وبلون مختلف ايضا رغم أنه

معروف جدا... ;وهاهي قد عادت إلى الزاوية ,للتكور بين ذراعيها... وثوبها الذي كان يلفها لفة عذبة... وآخر منه يداعبه الريح لخفته... مراقصا شعرها اللامع مع إطلالة شمس قد سرقت مدخلا من شقوق النافذة...

- ولكن...
- لما لا تريد فتحها... ؟!

ـــ ها هي تعشق الظلام... ؟!

- ماذا يربطها بذلك المكان...
- وذلك السواد كله؟!
- فجمالها يستحق النور...
- فربما يخاصمه ليظهر إن حاولت الظهور...
- ماذا يحدث لها ياترى...؟
- همساتها... رناتها...
- كلها شبيهة بحروف مبعثرة...
- لا تريد تجميعها...

- لكن...
- لما كل هذا؟!
- سأحاول معرفة ذلك منها...
ـــــ لم يبقى لي سوى خطوات قليلة وأصل إليها...
ـــــ ولكن ...
- ماذا أخبرها عن دخولي إليها...؟
- ومن أكون؟!
- هل ستفرح يا ترى...؟!
- مستحيل...
- لست أشك...
- ماذا لو كان ذلك يزعجها؟!
- ... لا يهم سأحاول
- سأصل إلى نور يشرق ذلك الظلام عليها...
- سأفتح تلك النوافذ كلها
- لترى لوحتها مع جمالها...
ـــ خطوة... اثنان... ثلاثة...

- سقط ذلك الكرسي اللعين... وأفسد عليها صمتها... كانت تحمل لوحة ألوانها عائدة إلى ذلك الفن الغامض... كانت تبدي فيه عبودية لكأنه معبد...
- لكأنه مفروض عليها أن تصلي فيه بألوانها... وصمتها... لا بد أنه من طقوسه هكذا... وسقوط ذلك القاسي... الأحمق... أفسد كل ذلك التناغم الإبداعي لها ولطقوسها...
- لقد ارتعبت...
- ورمت تلك الألوان من خوفها...
- إنها متراجعة إلى الخلف...
- باحثة في الظلام عن سبب ذلك الصوت...، وكلها خوف... ورعشة...

ــ قدم بعد قدم... نحو الوراء لتصل إلى طاولة مسنودة إلى الحائط... وهي تقول بكل خوف...

كان حتى خوفها ممزوج مع نبرة براءة رائعة... مختلفة جدا... كانت تقول:

- من هناك...؟!
- من أنت...؟!
- والعجيب أنها كانت قرب مقبس النور... لكنها لم تفتحه... !!!
- وبقيت تلح في سؤالها... ,لم تتوقف... عن ترديد تلك الجملتين..., وكأنها لا تعرف من الكلام سواهما... وأنفاسها تتسارع... كنت أظنها أنها لا تعرف من يوجد في غرفتها... وذلك لما يحيط بها من ظلام... لكنها عرفت أنني غريب...
- وأنني أريد شيء يخص ظلامها... أو لنقل معبدها ...
- ومن يسمح بدخول الغرباء إلى معبده... بعدما كان في خلوة...؟؟؟

- بقيت تلازم تراص الطاولة على الحائط... لكنها خانتها للحظة فانزلقت... وهوت على الأرض... له أدري ما جعلني أركض نحوها... رفعتها نحو الكرسي... كانت تحاول الخلاص من يدي... كانت تبدي قوتها...
- لكنها كانت لمستها كالبلسم الذي يوضع على الجروح فتبرأ... وكان توحش شعرها على وجهها لوحة في حد ذاته ساحرة...
- لحظة واحدة...
- يسرق ذلك الجمال نفسه من بين تلك السدل السوداء... فيفتح الستار على مسرح خيالي... يجمع بين وسع عيناها القائمتان... وبرقيتهما..
- وحاجباها المتربصان على عرشها...
- كانت سنفونة بالمختصر...

- رفعت ذلك المنظر بالنظر إلى... لست أدري ما غرست بداخلي...
- ربما كانت حيرة...
- أو انبهار...
- أو كان جنونا بجمالها الساحر...
- حينها عرفت سبب عشق ذلك السواد لها... وعدم قبول لوحتها للاكتمال... فهي عاشقة لتلك الأنامل الصغيرة... وذلك السحر... فاللوحة كانت تبحث عن رمز من رموز جمال راسمها حتى تكتمل...
- كنت أبحر في جمالها... لكنها بقيت تحاول الخلاص مني... لأستفيق بعد تخدير تحت وقع جمالها... فأجدها

تسأل عن سبب...
- دخولي إليها...
- وماذا أريد منها...؟

- كانت في قمة خوفها... وارتعاشها... فابتعدت عنها مبررا سبب ذلك لحظات من سيطرة الخوف عليها... بدأت تسكن... حاولت الرحيل... قالت:
- بدخولك إلى هذا المكان...
- لا يجب الخروج منه بعد الآن...
- فعجبت لقولها ذاك... وقد تملكني بعض الذعر من ذلك القول... فقلت:
- لما...
- وما قصدك بهذا؟!
- فقد أخبرتك أن دخولي كان فضولا لا أكثر...
- وأني لا أنوي شيء...
- فقالت:
- أعلم أنك تريد معرفة سبب هذا الظلام والسواد...
- لكن ليس بهذا الوقت...

- عد يوما ما...
- وستجد كل إجاباتك التي تبحث عنها.
- لكن بشرط...
- زادت حيرتي من كلامها ذاك... وكنت أشعر أنها لا تريد رحيلي... ولحظة أخرى أشعر أنها جنية تملكني... وأنني لا مفر لي منها... فقلت لها:
- شرط...؟!
- ما هو هذا الشرط؟!
- لترد بكل هدوء... وثقة
- قائلة:
- شرطي هو...
- أن يبقى الظلام هذا لسر عندك كظلام هذا المكان...
- وان يحجب نفسه عندك كظلامه....
- فرددت:

- أتقصدين أن يبقى هذا ...
- سر بيني وبينك؟!

فقالت:

- نعم...
- فلا أحد يعرف هذا إلا أنت...
- وإن عرف غيرك هذا ...ستكون مجنونا...
- لذلك ليبقى الظلام ظلاما...
- والآن يمكنك الانصراف...
- يجب أن ترحل...
- أريد البقاء وحدي...

انصرفت حينها... ولكن بذهول لا أدري ما الذي أصابني فلم أستطع الرد بكلمة حتى... خرجت أبحث عن نفسي... فوجدتها سؤالا...

مر ذلك اليوم كله حيرة... وسؤال... حتى أشرق اليوم التالي... كان بداخلي شيء

يدفعني للذهاب إلى ذلك المكان مجددا... وشيء بعقلي يمنعني... بقيت حائرا بين هذان الأمران... وبين أن أعرف سبب ذلك الظلام...

خرجت من البيت كالعادة... أتفتل بين الشوارع... ألتقط صورا فوتوغرافية...

- لأزقة...تشهد الصمت...
- ومشاهد للناس...
- منها الجميلة... ومنها المخزنة...
- منها من تجمع بين الحب والصدق...
- ومنها من تحفي في تفاصيلها مكر وحقد
- أو من العبارات المكتوبة على الجدران ما يستدعي ترسيخه...
- حتى الغروب عدت إلى المنزل... كنت متعبا... فتمددت على الأريكة للحظات... محاولا أخذ بعض الراحة... لكن النوم أخذني

نحو البعيد... ليصل الحلم إلى باحثة.. فيجدني أفتل ساحاته يأسرني عند تلك اللوحة.. لوحة تلك الفتاة العاشقة للسواد... لم تفارق مخيلتي إطلاقا... لتعود تفاصيل ذلك اللقاء على مرئ عيني...

كنت قد شاهدت كل شيء... لكن ما كان مختلفا... هو صراخها... كنت أراها وأسمعها تصرخ.

- إنها تستنجد...
- إنها تريد الخلاص من ذلك المكان...
- لأستيقظ مفزوعا... من ذلك الحلم... صحيح أني سعدت بأنه حلم... ولكن ما عشته في الحقيقة قبل ذلك... جعلني أجبر على العيش معه... فقمت إلى الحمام أغسل وجهي... وبينما أن أجفف وجهي... توجهت نحو المرآة... حتى إذا بي أرى وجهي بلون أسود... هلعت ذلك

الأمر... ورحت أحاول غسل وجهي عدة مرات.. محاولا التخلص من ذلك...

وإذا بي أسمع صوتا... يشبه صوتها... قائلا:

- السواد ليس بوجهك...
- بل بما رأيت...
- لقد أصبحت من لوحتي الآن...
- فرفعت رأسي ثانية نحو المرآة أبحث عن القائل وعن ما بوجهي فلم أجد شيئا...
- أوه...
- الحمد لله أنه لم يكن ما أتخيل...
- ولكن...
- ماذا يحصل لي...؟!
- لما رآها في كل مكان بسوادها ذاك...
- لا بد أنني متعب وركزت كثيرا بأمر تلك الفتاة...

- لذلك أنا أشعر بهذا الشعور...
- سأشرب بعض القهوة...
- لأستفيق جيدا... وأعود إلى الأستوديو لأرى ماذا قدمت من عمل اليوم في التصوير...

كان حينها وقوفي على المطبخ كالباحث عن دواء مستعجل... حضرت فنجان قهوة... وجلست أرتشف منه... مرة تلوى الأخرى... وأنا أقلب صفحات المجلة... فوجدت فيها إعلانا حول إقامة معرض للفنانين التشكيليين... ولمن يريد عرض إبداعاته الفنية في الرسم... فاستوقفني ذلك الإعلان على تذكر تلك اللوحة... فقلت:

- ربما نجد النور...
- فحملت المجلة وخرجت مسرعا نحو ذلك البيت البعيد... في آخر البلدة... إنه يبدو مهجورا منذ زمن...

وما إن وقفت على الباب... سمعت صوتها من الداخل يقول:

- تفضل بالدخول...
- ماذا؟!
- وكيف عرفت أني أقف على الباب؟!؟

في أول الأمر ترددت قليلا... لكن غايتي من المجيء دفعتني للدخول... فتحت الباب ببطئ... وتسللت بين الظلام إلى غرفتها تلك... لأجدها تجلس أمام لوحتها... بفرشاتها... ولونها الوحيد... وكالعادة... اللون الأسود... تدندن بنفس الهمسات... حروف غير مفهومة...وما إن اقتربت أشارت لي بأن قف.

- كانت تنتظر للوحتها!!
- وعرفت قربي منها؟!
- يا لعجب تصرفها...؟!!

- وقفت في مكاني... أنتظر منها إذنا... بقيت أقف مدة نصف ساعة تقريبا.. بدأت أمل الانتظار... فحتى هي كفت دندنة... وبدى الجو بليدا... قاسيا... بلونه الأسود... كله ظلمة... لا شيء يظهر من ذلك المحيط إلا تلك الأنامل... راسمتا لغزا... تسمرت أقدامي وأنا أقف... لم تأذن لي بالجلوس... ولم تنطق بشيء حتى انتهت من رسمها... وعند وضعها لوحة ألوانها أرضا... استجمعت نفسي لأقول سبب مجيئي... لكنها أخبرتني قبل أن أخبرها... قالت:
- أجئت لتطلعني على المعرض...؟!
- ولكن كيف...
- كيف عرفتي ذلك؟!!؟
- وبت احتسب في نفسي الجنون ويخيل إلى نفسي انها جنية

- أهي... جنية...؟!
- أنا لم أقل شيئا منذ مجيئي...
- فكيف عرفت ماجئت لاجله؟؟
- فقالت:
- ليس الكلام فقط ا يدل على غاية الشخص.
- فهناك أشياء؛ أخرى يعبر عنها الإنسان عن رغبته بأمر ما دون البوح بها...
- هنالك أصبحت أضج بالأسئلة حول طبيعة تلك الفتاة...
- من تكون؟!
- ولما صادفتني؟!
- وما سبب ظلامه في كل شيء؟!
- صمتت قليلا ثم أعادت القول:
- أعلم أنك محتار بأمري.
- لكن الأمر أبسط مما أنت تتخيل...

- ثم أذنت لي بالجلوس... لتتقدم نحوي حافية القدمين... نحيلة القوام... ناصعة البياض... تزين شفتها العليا شامة... كلما اقتربت أكثر... تشتت أكثر... كانت كل تفاصيلها تجبرني على النظر دون توقف إليها... كانت تبدو ملامحها ملائكية... وكأنها من غير عالمنا... لتفتح صندوق صغيرا... كانت فيه مجموعة ألوان مختلفة... فقدمته لي قائلة...:
- خذ هذه الألوان...
- وارسم بها لوحة خاصة بك...
- وشارك بها في المعرض بدلا مني إن كنت مهتم بذلك...
- فقلت:
- ولكن أنا لا أعرف الرسم...
- وأنت...
- لديك موهبة في ذلك...

- أقصد سر لوحتك هذه... فقطعت كلامي قائلة:
- لا أنت مخطئ.
- لست موهوبة...
- بل أنا مجبرة...
- فإنها طقوس أجبرت على القيام بها... لا أكثر...
- أما أنت فلك طموح...
- ولك نور وألوان...
- فلا داعي لأن تتبرأ من موهبتك.
- بت أدور حول كلامها وأمري... لأبحث عن رد لقولها فما وجدت إلا تلك التلعثومات الفاشلة... تخرج من بين شفاهي بلا وعي... حتى وصلت بي تلك ا لقولي:
- ماذا تقصدين بالطقوس...؟!
- ومن أجبرك على القيام بها...؟!

فتبسمت ضاحكة... وأخذت مشطا... وراحت تغزل شعرها بلطف... كانت تتفنن كعادتها وهي تقول:

- لا يغرك كل شيء تراه...
- فهناك ما هو ظاهري عكس ما بالباطن...
- إذا كان الشخص يحرك ألوانه على ورقة بيضاء ليلطخها...
- فهذا لا يعني أنه فنان برسمه.
- ربما يحاول قول شيء لم يجد له من الحروف تعبيرا...
- أو مجبرا على إظهار الطاعة لعالمه الأحمق...
- فحتى الشمس تحترق لتضيء نهارنا.
- والشمعة تضحي بما في بطنها لترضي ليالي العشاق على ضياءه.
- أما القمر يشتهر بسرقته لنور الشمس...

- لذلك لا بد أن نلاحظ باطن الأمور قبل ظاهرها.
- فبعض المظاهر خداعة...
- لدرجة إن عرفت حقيقتها تصدمك.
- مثلي أنا...
- كان حديثها درسا... جعلني أنتظر من قولها المزيد والمزيد... حتى وإن أبت التوقف... فلن أضجر من ذلك... كنت أبحث عن أخطاء أكثر... لأجعلها تحكي أكثر... وتسمعني همسها ذاك أكثر... توجهت ثانية نحو لوحتها البكماء... ولكنها بدون ألوان هذه المرة... كانت تخاطبها قائلة:
- ألستِ سوداء...؟!
- أليس لونك منبوذ كالغراب؟!
- الكل يحتقرك...
- لكني بت أعشقك أكثر...

- أخبرني أيها الظلام.
- ماذا تقاسمني من مآسي هذه الحياة؟!

كانت تحرك أصابعها الرقيقة على تلك اللوحة... وكأنها ترسم لها شخابيط.. كانت تحكي وبصوتها بحة... ليست كما كانت... وكأنها مغتاضة... أو حزينة لأمر ما... كانت تقول:

- ألم تعدني أنك سترحل؟!!
- ألم تعدني أن عبوديتك ستتحرر يوما؟
- أين وعدك لي...؟!
- حسنا... لما لا نتفق في الرحيل إذا؟!...
- دعنا نفترق من حيث بدأنا...
- دعنا نعد غرباء كما نحن,..
- فكلانا تعب...
- لم أعد أستطيع تحمل ألمك...
- ولا أنت تتحمل وجعي...

- حينها تأكد أن تلك اللوحة ليست كأي لوحة... وأنها سر يختبئ وراء ذلك اللون الكادح... وأن تلك الأنامل ملت الوقوف على تلك الفرشاة معاقبة...،
- تقدمت نحوها... محاولة أن أخفف عنها ذلك الأسى... فقالت:
- لا تحاول.
- فالأمر أصعب بأن أولد من جديد.
- فأنا مت منذ زمن...
- قد حاولت جاهدة الخروج منها.
- لكن لا جدوى.
- فالدخول إلى هذا الظلام كان سهلا للغاية...
- لكن الخروج منه بات مستحيلا...
- لتدير وجهها القمري نحوي... وعينها قد تورمت من البكاء... كانت تسدل شعرها خشية أن تغيض أحدا بذلك المنظر... لتتقاطر تلك

الجواهر نحو الأرض مقرئتها السلام... من سبيل حارق يؤجج داخلها الوحيد...

- ودون شعور مني... امتدت يدي نحو وجهها... رافعا إياه... لتنظر تلك النجمتان نحوي بإغلاق... وترتعش تلك القدمان خوفا... وتشبك تلك الأصابع ببعضها... متمنية بطفولية المشهد... فقلت:
- لا شيء مستحيل.
- ما دمتي تؤمنين بالأمل...
- لا بد من سبيل لإضاءة المكان.
- وطمس اللون الأسود...
- فقالت ماسحتا دموعها بيداها الصغيرتان... كطفل صغير....:
- ماذا لو كان معبدك ظلام...؟!
- هل ستهدمه؟!
- أم أنك تصلي فيه بخشوع...؟!

- أخبرني.
- ماذا لو أجبرت على العيش على لحن واحد.
- وأجبرت على دندنة واحدة كطقوس لذلك المعبد؟!
- هل ستفر منه؟!
- ماذا لو ربط طقوسه بكل ما يخصك...؟!
- الأمر ليس بالمكان.
- بل بداخلي.
- ليس ظلام المكان ما يستوحشني ...بل ظلام داخلي هو الذي يقتلني كل لحظة...
- لست فنانة لأرسم.
- فتلك لوحة رسمت منذ طفولتي بداخلي.
- وكنت مجبرة على إعادة رسمها لحماية صورة كسرت بصمتي...
- أنا لست عاشقة لهذه الألوان التعيسة الماكرة...

- (رامية الألوان على الأرض)... متبرئة منهم... محاولة الفرار إلى الحقيقة... قائلة:
- ولست محبة لهذا اللحن البليد...
- سئمت برودة هذا المكان.
- لكن لا سبيل للخروج منه...
- تعبت من سرقة لون آخر.
- محاولة تغيير هذا اللون.
- لكن كل الألوان تضمحل معه.
- إلا الأبيض.
- لكنه محرم عليا في شريعة هذا المعبد اللعين (ماسكة اللون الأبيض مع ابتسامة) لتقول مجددا:
- أشش...
- قد سمعنا (لونها متغير... وكلها خوف...). لتتوجه نحو زاوية الغرفة... جامعة نفسها بين أطرفها الصغيرة النحيلة...

- خائفة...
- معتذرة...
- وكأن أحدا يقف على رأسها معاقبا...
- لم تتوقف عن حديثها ذاك الذي كان ملؤه الاعتذار...، كانت تقول وهي باكية...
- آسفة...
- لم أقصد ذلك...
- أعتذر أرجوك...
- ما قصدت ذلك...
- أقسم أني لن أعود لذلك...
- لن أبكي مجددا.
- ولن أشتكي لأي أحد... (وكأنها تخاطب شخصا ما).
- شـــــش...
- شـــــــش... (واضعة أصبعها على شفاهها).

- حاولت تهدئتها لكن خوفها كان أكبر... اقتربت منها... فارتمت بحضني... مرددة كلام تقول فيه:

- أرجوك لا تخبره.

- أرجوك.

- أنا لم أخبرك شيئا صح...؟!

كانت تختبئ بي وكأنها تجلد... أو تهدد بموت يلاحقها... لحظات فقط حتى سكنت من ذاك الخوف الذي كان يسيطر عليها... لتهرب إلى النوم على دندنتها المعتادة... مستسلمة لعقوبة البكاء بالرحيل نحو الأحلام...

- أمضيت تلك الليلة قربها... لم أستطع تركها لوحدها على تلك الحالة... أشرق الصباح... على تأمل في وجهها القمري... فلم أشعر بتعب

ذلك الليل الطويل... ورغم طوله... وما فيه من أسى...

- نظرت إلى الساعة... إنها تشير إلى...
- السابعة صباحا...
- إنه وقت عملي...
- يجب أن أعود إلى البيت... لكن وجهها ذاك وحالها لم يتركاني أذهب بسلام... صحيح أن قدماي توجهت نحو الخارج... لكن روحي ضلت معها...
- ربما تحرصها.
- أو تتأملها...
- أو قد تكون مبحرة فيها أصلا...

ذهبت إلى الأستوديو لأفحص الصور... قد كنت إلتقطتها لها قبل ذلك... لكن العجيب أن كل صورها سوداء... بدأت أشك في أمرها.

- ربما ليست بشرا.
- ولكن كيف أمكنني لمسها...
- كلا ربما...
- ربما لظلام المكان.
- لم تظهر في الصور...
- لا لا... مستحيل...
- أكملت عملي... ليحل المساء... فتوجهت نحو بركة في سفح الجبل... يقال لها بركة الأمل... لها منظر رائع مع الغروب... حاولت الوقوف على ذلك الجمال ونسيان ذلك التشتت... كنت أبتلع أسئلتي منذ اللقاء بها.
- ليتها كانت بقربي الآن.
- ربما تتشارك معي هذا السحر المسائي!
- كانت رقرقة المياه مع انحناء الشمس على الجبل؛ تشبه رقرقة عيونها... و وسع تلك الأرجاء كوسع خيالها... أما تلك الغابات

بظلالها... بدت بحسن شعرها... الليلي الساحر... كنت ألتقط صورا... وآخالها هي أمامي... ساعات من الزمن... ليظهر ذلك القمر... فرحت أخاطبه... وأقص عليه أمري... عله يشرح لي ما أنا عليه... كان في طلعته كوجهها الناعم الطفولي...

- لست أدري...
- منذ أن رأيتها...
- أصبحت شاعرا.
- فنانا.
- أو موسيقارا.
- أو ربما ألممت بكل الفن دفعة واحدة.
- فجمالها ولطفها المختبئ على شرفة قلبها المكسور...
- يجعل من الجاهل عالما.

- لتبصر عيني نجمة... تقارب ذلك القمر... كأنهما يحكيان قصة حب وأمل... وددت لو كانت بقربي لحظتها... ربما كنت نطقت بعض الحروف بمثل قولها ذالك... الذي لا يشبه أي قول...
- كنت أتذكر حروفها تلك... كلها عبارة عن كلمات من قاموس واسع... لا أجد له وصفا... كانت كلمات مليئة بالمعاني التي أهملتها منذ زمن... وأدركت للحظة حقيقة قولها.
- أن ليس الفنان من يلون فقط...
- بل الفنان من يشعر حتى ما لم يكن فنانا...
- ربما كنت أنظر إلى الفن عكس حقيقته... لكنها علمتني كيف أجرب فكرة الفن فيها... توالت الأيام على ذلك السهر... لم أراها منذ فترة.
- خشيت أن تكون ممن يعانق وحدته في صمت...

- أو أنها لا تريد وجودي...
- حتى يوم عابس مظلم... قار... بليد نكد... تزاحمت فيه السحب نحو إخفاء الضياء وجنى فيه الليل الباكر على باحة الساهرين... ليخطف الأنظار منه البرق بعنفوانية الرعد... فيتصدع الكون خوفا وهلعا... لحظة واحدة من تأمل ذلك المنظر... عادت إلى ذاكرتي صورتها وهي في خوفها... تنزوي إلى زاوية البيت وحيدة... جامعة نفسها بذراعيها النحيلة...

لم أشعر على نفسي في ذلك الجو الكادح... إلا ورفعت معطفي على هميد جسدي المتبع لقلب قد سبقني... وصلت إلى بابها... لم أنتظر إذنها للدخول... فوجدتها تغفو كالملائكة... وكأنها لا تعي ما يحدث بالخارج.

- جلست بقربها...

- فتحركت.
- ململمة أقدامها الحافية بثوبها النحيف مثلها...
- كانت يبدو عليها أثر البرد... كان يغتالها بقسوة... لتتكور مرة فمرة... وما إن وضعت سترتي عليها أحست على ذلك وفتحت عينها... قائلة:
- كنت أنتظرك منذ مدة.
- لكنك نسيت التفكير بالمجيء إلى هنا...
- لما أبطئت هكذا؟!
- أم أنك... (لتسرق كلماتها غفوتها...).
- كان صوتها يهمس... مخلوطا مع بحة النعاس... زادته جمالا... شعرت فيه بأن قلبي خفق لأول مرة... لأرد عليها باعتذاري...
- أعتذر.
- ولكن كنت مشغولا...
- لذلك...

- فقالت مقاطعة قولي:
- أعلم أنك كنت مشغولا.
- ببركة الأمل...
- هل أدركت جمالها.
- أم أنك لتزال مندهشا في بداية مشاهدتها...
- في لحظة اندهشت بأنها تعرف أمورا عني... وكأنها تتبعني... وحينما شاهدت حيرتي أخبرتني قائلة:
- لا تندهش من ذلك.
- كنت أذهب إلى هناك عدة مرات...
- فأجدك تلاحظ بسط ما حولك.
- وتلتقط صورا.
- اطمئن...
- فأنا مثلك... (ثم تبسمت وقالت...).
- لست بجنية...

- حينها إطمئن قلبي... وكأنها مسحت عليه غبار الشك بكلامها... لتقف نحو النافذة... ناظرة نحو الخارج المظلم... مبتسمة... وكأنها عثرت على ما تريد... فتقربت منها أشهاد ما تشاهد... كان فن من نوع آخر... زخات مطر... تختبر الأرض ما مدى شوقها لها... وتهاوي وريقات الأشجار بهدوء على الأرض... هامسة بحفيفها، أن أسكني لما سيأتيك وتلك الورود الندية تعانقت بصدق مع ميلات الرياح لها... كان قطر المطر لحن خاص بالنسبة لها...، كانت تتنفس وكأنها ولدت من جديد...
- دقت ساعة الحائط لها... لترسل عقربها نحو العاشرة ليلا... فالتفتت بلهفة وسعادة نحوها..
- لتنطلق بقدمين حافيتين...
- على درج خشبي.

- نحو الخارج...
- واقفة تحت المطر...
- وضحكتها مدوية الأرجاء...
- بنبرة طفولية.
- تبحث عن نفسها في دوراتها التي كانت تدورها... باسطة ذراعيها.
- بلا خوف.
- بلا تردد...
- وكأنها ترى في لحظتها تلك حريتها التي حبست منذ زمن وراء ذلك الظلام... كنت أشاهدها من قرب... لتحركني إليها... بجذبها لقلبي قبل ذراعي... لتحكم على شتاتي كعادتها... بقبضتها تلك على يداي منسرحة بجسدها نحو فسح ذلك الهواء... كانت تلعب كالطفل الذي كان لا يدرك ما حوله سوى

الحرية... فنخلص إلى حرية الطبيعة الناغمة...

- مضت ساعات وهي على تلك الحالة، لتجلس بأحد الكراسي الموجودة في فناء ذلك البيت.
- متأملة...
- وكأنها تتذكر شيئا...
- لتتركه حائرا بين نظراتها تلك...
- فتسافر نحو الحديقة...
- التي كانت تجمع بين جمال المطر...
- وعطر الزهر...
- تلامسها بحنان...
- تداعب وريقاتها...
- لتسكن تحت يداها الصغيرة...
- وتهمس بنفسها في أذن تلك الورود...
- باستنشاق عطرها...
- لتنظر إلى ذلك السور المعانق لساعة...

- كانت تصدر صوتا...
- لم تبقى على حالها السابق...
- تغيرت كل ملامحها في طرفة عين...
- كان صوت تلك العقارب العملاقة يضجرها...
- لتضع يداها على أذناها سادة إياهم...
- هروبا من صوت تلك الساعة القاسية على طفولتها...
- لتهرب إلى ظلامها مرة أخرى...
- حاولت إيقافها...
- لكن...
- حتى اسمها لا أعرفه...
- دخلت المنزل... مباشرة نحو زاوية الغرفة المعتادة... ساكبة دموعا لا رحمة فيها على جمال عيناها الساحرتان...
- متكورة...

- كانت تظهر عليها ملامح الخوف... حاولت الاقتراب منها لكنها رفضت قائلة (بنفس التوسل والرجاء... لكن لمن؟!):
- لا أرجوك...
- أرجوك ارحل...
- أنا...
- أنا لم أفعل شيئا...
- هذا يكفي...
- يكفي...
- دعني وشأني...
- سأكون بخير...
- يكفي أن ترحل من حياتي...
- سأكون بخير...
- كانت كلماتها متقطعة...
- صحيح...
- إنها تطلب الرحيل...

- لكني لم أفعل شيئا...
- خرجت من غرفتها... وبقيت بغرفة الضيوف... حتى يسكن نحيبها... لتعود إلى دندنتها...
- كأنها تهويدة تعيدها في معيد ما....
- لأدخل على صوتها ذاك... كانت تجلس على لوحتها السوداء...
- بألوانها الوحيدة مثلها...
- على بلل شعرها... المبعثر على كتفيها النحيلتين...
- الشاكيتان قساوة البرد على ساحاتهما...
- وتلك الفرشاة...
- حاكية آساها المخفي في داخلها... كانت ترسم وتحاكي نفسها قائلة وبرسمها نوع من القسوة...
- لست مثلهم...

- أليس كذلك...؟!
- أنا لست منهم...
- لا أريد أن أكون...
- صحيح أني غريبة...
- ولكني...
- أطهر منهم...
- ومنك أنت حتى.
- أتذكرني يا صديقي ذلك الفناء...
- كيف كان...؟!
- وتلك الورود...
- حين كنا نسقيها سوية؟!!
- هل تذكري ذلك الضياء مع الصباح على سطح هذا البيت المهجور؟! (لتشير بأصبعها نحو شفتاها أن اصمتي قائلة مرة أخرى:
- شش...
- سيسمعك...

- اخفضي صوتك...
- أعلم أنه هنا...
- قد أقسم أن لن يرحل أبدا... لن يرحل...
- انظري... هو في كل زاوية...
- هناك...
- وهناك...
- وبك أنت...
- حسنا...
- حسنا...
- سأذهب إلى زاويتي قبل أخذها مني...
- لتسرع نحو زاويتها... منحسرة بين جدرانها...

كان ذهولي يمنعني من قول أي حرف... سوى مراقبتها... محاولا أن أفهم ماذا يجري لها...، لكن أصبحت أنا من يبحر في فوضى أمرة أكثر... فقد علقت بذهني... ولم أستطع إخراجها رغم محاولتي....

- بالرغم من أنني لم أتمكن من سؤالها على اسمها حتى...
- صحيح أني أعطيتها اسما بداخلي...
- لكن لست أدري أتحبه أم لا....؟؟
- كانت ليلة مختلفة عن الليالي التي قبلها... فيها من السعادة كأس... رغم نفاذه بسرعة... وحروف نطقت لكنها لم تجهر بتفصيلها...أنا مدرك أن ما أصنعه أمرا مجنونا... ولكن لم يكن بيدي... فحالها ذاك قلب كل الموازين... جعلني أركض وراء كل حركة منها... دون وعي.
- بعد ذلك العناء أقبلت إلى فراشها... لتلقي نفسها كعشيقة بين أحضان ذلك الظلام... ممارسة معه النوم والهروب نحو الضياع... أو ربما أحلام لن تتحقق... وهي على عفويتها كانت تقول لي...:

- إياك أن تخبره...
- إياك أن تحاكيه أصلا...
- أنا لم أهجر معبده هذا قط...
- أليس كذلك؟
- إنها مجرد نزهة...
- سأقوم بطقوس الفداء غدا...
- هل ستكون هنا لمساعدتي...؟!؟
- هل ستكون؟...
- لن تفعل مثلهم أليس كذلك؟!؟
- لن تتركني بحاجتي لك؟!
- لن نفعل...
- صح...؟
- لن تفعل...؟؟
- قل... هل ستكون...؟؟
- لتطلق سراحها نحو الغيوم... فترسل تلك الأنفاس المتعبة... بعد سدل ستائر تلك

الرموش... على مسرح عيونها المتعبة... كنت بقربها حتى الصباح... وما إن سمعت رنة تلك الساعة اللعينة...

- أفاقت مذعورة...
- مسرعة نحو غرفة مقابلة لغرفتها...
- كانت غرفة مليئة بأشياء غريبة...
- ألعاب...
- صناديق...
- مكتبة...
- كتب... قديمة مرمية على الأرض...(وكأنها تودع بحزن من كان يفتحها...).
- وكأس قهوة...
- ينحني على حافة الطاولة...
- يكاد ينتحر...
- وكأنه سئم عناق تاركه...
- كانت الغرفة مليئة بالغبار...

- وأعشاش العنكبوت المستحوذة على الجدران.

كل شيء يقف على بعدين...

- كانت تبحث بسرعة...
- كأنها تبحث عن شيء مستعجل...
- كنت أسألها...
- فلا ربما ساعدتها في إيجاده...
- لكنها لم تخبرني...
- كان قولها محصور بين...
- شش...
- هذا يكفي...
- اصمت...
- لا تصدر صوتا...
- قد يستفيق مزعوجا...
- لن يرحمنا...
- أين هو...
- أين هو...؟!؟

- فقلت في حيرة (مع شك مني يقرب إلى اليقين بجنونها...).
- من تقصدين...
- أنه سيستيقظ منزعجا...؟!
- أنا لا أرى أحدا...؟!
- وما الذي تبحثين عنه...؟!
- لكنها لم تغير كلامها ذاك... وبقيت تبعثر كل شيء أمامها... حتى وقفت على كتاب قديم جدا... لتشرق ثغرها بتلك الابتسامة قائلة...:
- وجدته...
- لقد وجدته أخيرا...
- سأقيم طقوس الغفران الآن...
- لتعيد بعضا من الكتب التي أسقطتها عند بحثها... وبينما كنت أجمع بعض الذي كان من قبل... غضبت وقالت:
- اترك ما بيدك...

- من طلب منك فعل هذا...؟؟
- إياك أن تجمع شيئا...
- فهذا ما أراد...
- إنها...
- إنها...
- لتصمت... وأدارت وجهها نحو الباب... متوجهة إلى غرفتها... مشيرة إلى أن اخرج من الغرفة... فأغلقتها جيدا... وعانقت ذلك الكتاب... وكأنها تحمل فيه حريتها... جلست على كرسي متأرجح... يأخذها نحو الخلف لحظة... ليعده في الأخرى نحو الأمام... أما هي فكانت تتقلب مع صفحات ذلك الكتاب... كان عنوانه... "الموت"... كان يبدو بحجم كبير... وبأوراق قديمة.
- لحظة...
- إنه ملطخ بقطرات حمراء...

- ترى...
- هل هو ما أفكر فيه...؟؟
- لا.
- هذا مستحيل...
- ربما من المونتاج الموضوع على صفحاته لا أكثر... وبين حيرة في أمرها...وأمر تلك الحركات وبين نظراتها... وتلك القطرات كنت قد أسكنت نفسي عالم السؤال... كنت أجهد نفسي لأعرف حقيقة ذلك... لكنها لم تسمح لي بالنظر إليه... كانت تخفيه... وكأنها لا تريد غيرها قراءة محتواه...
- كانت تقرأ سطوره أحيانا بصوت عال...
- وأحيانا بصوت خافت جدا...
- أو همسا...
- وكلما همست حزنت...

- فيفضحها صوتها العالي بعد ذلك... بغصته... ممزوجة بين فرحة مسروقة من عالم الضياع... كانت تردد جملة كثيرا... وكأنها تسكن أوجاعها... وقد كانت هذه الجملة تقول:
- "سنموت جميعا...
- لست وحدك الميت...
- لذلك دعني وارحل...
- سنتقابل..."
- كانت تلك الجملة عبارة عن لغز...
- فكيف الحديث مع الميت...
- واللقاء...؟؟

قلبت صفحات عدة... وهي على تلك الحالة... تتوه بين السعادة برهة... وتغرق في فجوة الألم برهة أخرى... وحينما رأتني حائرا قالت لي:

- أتدري ما هو الموت؟!

- فقلت ببساطة تفكيري:
- الموت...
- هو الذهاب إلى عالم آخر بلا عودة...
- فتبسمت وقالت:
- وهل يوجد موت بلا غياب الروح والجسد معا؟!
- فقلت:
- وكيف يمكن للموت أن تأخذ...
- الروح بلا جسد...
- أو الجسد بلا روح...؟؟
- هل هذا تعبير مجازي...؟!
- أم حقيقة خيالية؟!
- فقالت: -وهل يوجد للخيال حقيقة؟!
- فهو في الأصل ليس موجودا فأفحمتني بإجابتي تلك، ثم راحت تقول:

- الموت هو ليس بالضرورة أن تفارق الروح الجسد...
- أو يغيبان سوية...
- فأحيانا يكون كلاهما موجود...
- ويكون الموت.
- فقلت في دهشة وفضول:
- وكيف يكون ذلك...؟!
- كيف يمكن للموت بوجود الروح والجسد معا حيان.
- فردت بتنهيدة... وكأنها فارة من قسورة الحياة الأليمة ثم قالت:
- إذا مات الإنسان بداخلنا...
- فالموت أرحم من أن تكون بنا روح بلا فائدة...
- وإذا مات الصدق بأرواحنا...
- فهذا موت لا يقل عن سابقه...
- لكنه يبقى معذبا للروح بالجسد...

- مثلا بالذكريات...
- فهو يقتل أرواحا بالروح...
- ويعذب الجسد بالألم والدموع...
- وحقيقة الخيال التي تقول أنت عنها...
- فهي مذهب من مذاهب الحمقى...
- يمشون في خطاها...
- كي يعيشون بنصف عمر... تحت رحمة الحقيقة...
- فقلت في نفسي حينها.
- لما لا أستغل هذا وأسألها عن أمرها...
- وحياتها...
- وسبب كل هذا...؟! لم أجمع الحروف كي أصل إلى جملة السؤال حتى قالت هي:
- أعلم أنك تبحث عني في كل حركة أقوم بها...
- وتريد معرفة من أكون...
- فقلت:

- وكيف عرفتي هذا...؟
- وكيف يمكنك قراءة أفكاري...؟!
- أقصد...
- من أخبرك بهذا الأمر؟!
- فأنا لم أقل شيء حتى...؟!
- فقالت:
- وكيف لا أعرف.
- وقد كنت بحالك قبل ثمنية سنوات...
- كنت أبحث في كل التفاصيل...
- في كل حركة...
- في كل نفس...
- في كل خطوة...
- أو قل كنت مولعة بذلك...
- لكن...
- ندمت على هكذا أمر...
- لأني قتلت...

- دون أن أكرم بالدفن حتى...
- وعشت ميتة...
- على أرجوحة...
- كنت أهرب إليها في وحدتي...
- لكن الموت لو كان بي...
- لكان أرحم مما أقاسيه الآن...
- فقلت:
- هل أخبرتني عن ذلك تفصيلا...
- إنني لم أفهم شيئا من قولك...
- فتبسمت بثغر... مشغول الشفاه بالحسرة... وسارق الابتسامة مع الغيض... ليطرقوا باب الحديث معا... على لحن يرجعها إلى ماض أليم بحسب حروفها تلك لتقول:
- لا أريد لك الموت على معبد الماض مثلي...
- ولا أريدك أن عيش على خيال بأخذ إلى لوحة الفنان المشاكس...

- فهو موهوب في تشتيت خيالك نحو الأفق...
- لترحل سنين من العمر على متن باخرة الكذب الفني...
- لذلك الزم صورتك بألوانك لا بألوان غيرك...
- فكثير من الفنانين غارقين بين أمواج الألوان مثلي...
- ولكنهم يحتارون بين أجملها...
- ومنهم من يهرب بين فن الحروف.
- فلا يجد قارئ لها... رغم رواج كتبه...
- وهناك من يرسل في ألف بريد...
- لكن كل رسائله لم تفتح بعد...
- رغم ما تعبر عليه من شوق وحنين...
- فقلت:
- كلامك جميل جدا...
- هل هذا يعني أنك تعشقين الكتابة بدل الرسم؟!
- فقالت:

- أنت لم تفهم بعد...
- لست عاشقة لأحد منهما...
- ولكن عاشقة لأمر واحد...
- وهو سبيل الخروج من معبد الظلام هذا...
- فليس الفن حب الشيء وفقط...
- بل هو الحب مع الموهبة ومع الطموح...

لأرد أنا على حديثها... بحديث غيرة فقلت لها:

- هل لا أخبرتني عن سر هذا الكتاب؟!
- ولما أنت مهتمة به لهذه الدرجة؟!
- هل هو خاص مثلا؟!
- نظرت بي نظرة... وكأنها تقول فيها كفاك تفصيلا... فالأمر يخصني... لتجيب قائلة:....
- لا زال الأمر مبكر لمعرفة هذا...
- ولست قادرة على تقديم فداء آخر...
- لذلك حان الوقت لأن نرحل...

- شكرا لوجودك معي...
- لقد أكمل الطقوس...
- وأنت لك لون خارج هذه الجدران التعيسة.
- لذلك اذهب والتقي بها...
- وكفاك من ترهات حياتي اللعينة...
- فهمت من كلامها ذاك أنه لا بد من رحيلي... وأنه لم يعد مرغوبا بوجودي هناك... فحملت حيرتي وشوقي لها ومنها... وتوجهت نحو الباب... لتقول بصوت هادئ... ثابت... متيقن...:
- في المرة القادمة...
- لا نفتح كتابا...
- حتى تنظر عنوانه...
- فبعضها يقص لك قصة الحروف...
- قبل قراءتها...
- لا تنسى... العودة...

- فالطريق بات معروف لك...

- والباب مفتوح...

- سأنتظرك...

- خرجت حينها... ولست أدرك على حالتي...

- هل أعيش وهما أم حقيقة...؟!

- أم أنني أتخبط في وحل كابوس...؟!

- كلا...

- ليس كابوسا...

- بل حقيقة...

- بل كابوسا...

- توجهت إلى البيت... وصلت بكل تعبي... فألقيته على تلك الأريكة الهادئة... أو ربما الضاجرة مني في صمتها... لأغمض عيناي... فيعاد على مرآها صورة ذلك الكتاب... حاولت التجاهل بتقلبي يمنة وشملة... لكن دون جدوى... بقيت تلك

الصورة اللعينة تظهر... وحملتها الأخيرة التي لم يطرق غيرها أذاني... قمت من توي نحو المكتبة العامة.

- أبحث عن ذلك الكتاب...
- قلبت كل رفوفها...
- بلا وجود لمثل ذلك الكتاب...
- توجهت إلى مكتبات أخريات...
- فلا جدوى من ذلك...
- وبينما أعبر الشارع... لفت نظري ركنا صغيرا.... يقف على بابه رجل عجوز... يقرأ أحد الكتب... كان يظهر عليه عناء الدنيا... لكنه ليزال مصرا على أن يحفظ حكم غيره من الحياة... كان يسرق نظرة من نظارته المقطوعة الساعدين وكأنها صلبت... وما تبقى من ضياء عيونه العاجزة...

- فاقتربت منه... ألقيت عليه التحية... ليلقاني بكل سرور... داعيا إيايا إلى الجلوس... على قهوة... جلست على طاولته تلك أرقب المكان كان هادئا جدا... أما ذلك الدكان الصغير... فكان يجمع بعض الكتب... وتلك الرفوف تشبه رفوف المكتبة عندها... كلها غبار وبيوت عنكبوت... وجزء منها مبعثر... خشيت أن أكون قد فقدت عقلي... وأني أصبحت أهلوس...
- لحظة...
- نفس الرف...
- إنه الرف الرابع بيمين الخزانة...
- نفس الكتب...
- فقمت نحوه...
- علي أن أجد ما أبحث عنه...
- فكل شيء متشابه...

- فربما تتشابه الصدق...
- ويكون لي نصيب منها بما أبحث عنه...
- بحثت بين تلك الكتب...
- لكن لم أجده...
- وبينما أنا أبحث منهمكا حتى جاء الشيخ... بخطاه الثقيلة من الشيب... بيدين مرتعشتين... تراقص فنجان القهوة بيده... قال بسعادة:
- تفضل بني...
- ها هي القهوة...
- إنها أجمل قهوة...
- برغوة...مع السكر
- تنسيك كل مشاغلك وأتعابك.
- ليرفع كأسه نحو فاهه... متمنيا بداخله، أن يسعفه الحظ بإكمال طريق قهوته إلى حلقه دون الأرض... مستلذا طعمها... ليعود إلى الحديث معي قائلا:

- لم يزر هذا الطريق أحد منذ قرابة السنة...
- إلا المضطر في طريقه للاختصار.
- فهو مختصر من هنا...
- أنا سعيد جدا بجلوسك معي يا بني...
- تفضل...
- أخبرني...
- هل تبحث عن أمر ما؟!
- ليقول معتذرا...:
- أعتذر بني...
- ربما أزعجتك بحديثي...
- فنحن الشيوخ هذا هو أمرنا...
- إذا صمتنا...
- صمتنا يشبه القبور...
- وإذا نطقنا...
- فلن نقف عند حرف... (ثم تبسم... وقال:).
- والآن أخبرني...

- هل يمكنني مساعدتك بشيء...؟؟
- أقصد إذا كنت تبحث عن طريق أو بيت...
- فأنا أعرف هذه المدينة منذ زمن...
- بل أحفظها أكثر من اسمي...
- فقلت:
- هل يمكنني أن أجد عندك كتاب...
- أقصد أريد إقتناء كتاب...
- لكنني...
- بحثت عنه كثيرا...
- ولم أجده...

فتبسم الرجل وقال دون أن يظهر للأمر جدية...:

- قلت كتاب مفقود...؟!
- عجيب...
- لكأنك تبحث عن كتاب الموت...؟!

- فقلت:
- نعم...
- إنه الكتاب الذي أريد.
- هل تعرفه...؟!
- هل قرأته من قبل؟!
- أين يمكنني أن أجده؟!
- فقال الشيخ (متغير الملامح... ليست كالتي كان عليها...):
- على مهلك أيها الرجل...
- على مهلك...
- ما خطبك وهذا الكتاب؟!
- بني...
- هذا الكتاب لم يعد موجودا...
- فإنه منع من هذه البلدة منذ فترة...
- فقد كان كالوباء بين الناس بالجنون...
- وأذكر أن آخر نسخة كانت لدي...

- أخذها رجل يدعى "ميخائيل" صاحب البيت المهجور...
- قلت البيت المهجور؟!
- أتقصد ذلك البيت ...
- الموجود على آخر الطريق من البلدة؟!
- فقال...:
- نعم...
- إنه مهجور منذ سنوات تقريبا...
- هل تعرفه؟!
- فقلت:
- أعرف البيت فقط...
- ولا أعرف ذلك الرجل...
- هل يمكنني العثور على نسخة منه إذا أمكن؟؟
- في أي مكتبة هنا...؟؟
- نظر إليا متعجبا... ليرد بقوله:
- إذا كنت تريده...

- فعليك بدخول البيت...
- فربما تجده هناك...
- ولكن احترس... إنه كتاب...
- كل من قرأه...
- لم يسلم من شره...
- فهو كالظلام بالروح... (وبوجهه المتغير ذاك... الخافي لأمر ما).

قام الشيخ من مكانه... بكل هدوء... حاملا قهوته... وكتابه الذي كان يقرأ... ليجلس على كرسيه...متأرجحا... مرتشفا قهوته... وكأنني غير موجود... حينها عرفت أن أمر الكتاب... ليس بالطبيعي... لا في البلدة... ولا في حياة أهلها... وأن القصة ليست مجرد خيال...

- لما رأته لا يعيرني انتباها... أخذت نفسي نحو بحث أطول... وعدت إلى منزلي... أسأل نفسي عن سر ما آلت إليه.
- حاولت التجاهل.
- لكن ذاكرتي الحمقاء...
- عشقت تلك الصورة...
- وذلك العنوان... لم ترد غيره إظهارا...
- وتلك الكلمات التي قالتها تلك الإلهة...
- ماذا تقصد بعنوان الكتاب؟!
- بت كالأبله... أسأل وأجيب نفسي... ساعات وساعات... وبعد الساعات باتت أيام... لم أستطع الخروج إلى مكان... وكأني بت أعشق الظلام مثلها... كانت بداخلي لهفة لها... لكن حيرتي تبعدني... كانت تعيدني إلى رشدي... مضت أيام لم أكن أعدها... وذات مساء... خرجت مع أحد رفاقي نحو المقهى المطل على

البحيرة... المسماة ببحيرة الأمل... فتذكرت ذلك اليوم الذي عدت فيه إليها من البحيرة... وأخبرتني عن مكاني الذي كنت أتردد عليه... دون أن أطلعها عليه... فزاد شوقي لها... وأصبحت رغبتي برؤيتها جامحة... لم ترحم تريثي في الأمر... حتى تركت رفيقي بمكانه ورحلت... حاول منعي لكنني تحججت له بأمر مهم... فذهبت مسرعا نحوها:... دفعت الباب... فإذا به مفتوح... فعمدت خطاي نحو غرفتها السوداء... إذا بها تقف على الباب... وكأنها تلومني في تلك النظرات... وعن طول الغياب فرحت أقبل عليها بالاعتذار... قائلة:

- أعتذر... لم أقصد الغياب... ولكن...
- فقالت:
- لا عليك فقد اعتدت الغياب منذ زمن...
- فبت كهذا البيت في الهجران...

- ثم أذنت لي بالدخول... لأجدها قد لطخت كل الأرض بلونها الأسود... وعليه قطرات من اللون الأحمر... وهي تمضي فيه بحفاء قدميها... وكأنها تعاقب نفسها بذلك... بقي إلا طريق صغير... غير ملطخ... يوصل إلى الكرسي بقرب كرسيها... وبينما هي تتقدم في ذلك السواد... منعتني أن من أن أفعل الأمر نفسه... وقالت:
- إياك أن تتبع خطاي في السواد...
- فلك طريق ليزال صافيا... لم يصل إليه ويعكره بلونه هذا...
- وبعد جلوسي... أخبرتني أنها انتظرتني كثيرا... وعادت إلى زمن بعيد بروحها المعلقة بين تلك الظروف... وهي انتظار من لم يأتي...كانت تقول:

- لم أعهد على نفسي يوما... أن أكون شاهدا على الانتظار قط...
- فكيف جعلتني أنتظر...؟!
- رغم أنك لم تكن تتبع قلبك بالمجيء إلى هنا...
- أخبرني...
- ما الذي يجعلك تطرق بابي من حين إلى حين؟!
- هل بت تعشق هذا المعبد اللعين؟!
- أخبرني... ما الذي أتى بك إلى هنا...؟!
- فقلت... دون شعور... فما كنت أنا لأقول أصلا... بل كان ما بقلبي هو الحاكي...
- ولا أنا أدري سبب مجيئي...
- لست أدري... ما الطريق الذي آخذه حتى لا أعبر هذا الشارع...
- فقد لا أعبره راجلا...
- ولكن أعبره بخيالي وذكرياتي...

- ربما سدت عني كل الطرق إلا هذا الأخير...
- رغم ما فيه من غموض...
- حدقت بي للحظات... وكأنها تلوم ردي ذاك... وأنها غير راغبة فيه... ثم حدثتني قائلة:
- إذا اتبعت هذا الطريق...
- فلن تجد سوى حروف مبعثرة... تأخذك إلى دهاليز الحياة المظلمة... وتكتب عليك العيش تحت صورة قد مضت بداخلك التعيس...
- لذلك اختر الآن...
- إما الرحيل...
- أو الوقوف على شرفة الموت بدون أصول...؟!
- أيهما تختار...؟!
- كان الأمر محيرا جدا... كأن سؤال لم توجد له إجابة بعد... فكلامها لغز... يشتكي غموض حياتها وكلماتها في نفس الوقت... فرددت:

- هل سيكون الرحيل من هنا بعيد عنك...؟!
- فأجابت بأن نعم...
- وحين سماع ذاك الجواب... كان طعم الموت قد غرغر بداخلي حقا...؛ فلم أستطع البوح... ولا الكتمان حتى حروفي باتت معذبتي أكثر منها... لأعيد القول مرة أخرى...
- وهل البقاء معك فيه قرب وأنس منك...؟!؟

فتبسمت قائلة:

- نعم... سيكون أنس لكلانا...
- ستفتح كل دفاتري... وتقلب صفحاتي... ستبحث في ماضيا... وتغير لون لوحتي... لكن...
- ودون سماع ما بعد لكن... وافقت بلا تردد... وكأنني أتكلم بلا وعي... بدت سعادتها في تلك اللحظة جلية... لتعانقني بكل لطف... ما كنت

أتوقع ردة فعلها تلك قط.. لتبدأ بالركض بين أرجاء الغرفة.. مبدية ابتسامتها التي أسرتني في معبدها ذاك... وحركات يداها الصغيرة وسكنات قدماها الحافيتان... وبعثرة شعرها ذاك الليلي...

- إنها تمسك بيدي... قائلة:
- تعال... أريد أن أطلعك على أمرها...
- ألم تكن تبحث عن صور جميلة... أنا لدي الكثير منها...
- لتفتح نافذة... كانت تطل على منظر آخاذ.... خلف البيت... كانت تقف على الشرفة... على رؤوس أقدامها... سارحة في نسيم ذلك الهواء... كان منظر خلابا... ثم أخذت نفسا عميقا... لتبدأ بقصتها تلك... مع لونها الأسود... العالق بماضيها كالغراب...
- أترى هذا المكان...؟!

- لم يصل إليه أحد منذ ثمانية سنوات...
- كنت أنا آخر من فتح هذه النافذة... يومها كان نقطة نهاية لكل شيء به نور في حياتي...
- فكل غرفة من هذه الغرف تحكي مأساة... لكن هذه الشرفة تقص أكبرها... تخيل أن مثل جمال إطلالتها... مثل سواد داخلها...
- قلت:
- كيف ذلك...؟
- لم أفهم ماذا تقصدين...
- وهي تجرني نحو الغرف وتفتح أبوابها... قاصة علي قصص كلا منهم فتحت الغرفة الأولى وقالت:
- هذه غرفة أمي...
- التي لم تكن أمي...
- بل كانت عشيقة أبي... كانت تعيش هنا... لا يهدأ لها بال إلا فيها...

- وكان زوجها ذاك القاسي متعجرف... همه الوحيد أن يقف على مال للقمار... وزجاجة شراب... وفتاة شقراء تغريه...
- كانت الوحيدة التي تهتم بي... فبعد وفاة والدتي الحقيقية...
- أو قل بعد انتحار أمي الحقيقية... أخذتني هي... وربتني... كانت حنونة... عطوفة... رغم أنها ليست أما...
- كان والدي يعشقها... لكنه لم يرد أن يرتبط بها...
- لماذا؟.
- لأنها كانت نادلة في الحانة...
- كانت تعيش هاربة من واقعها بين هذه الجدران الباردة... حتى يوم مرضت... كنت حينها بعمر الحادية عشر من عمري... كان مرضها السل... منعت من الدخول إليها خوفا من

العدوى... لكنها كانت تظهر بعينيها ملامح الشوق لي... وأنا أيضا...

- كنت أتسلل في الليل خفية... وأدخل من باب المكتبة السري... كنت أحاكيها وهي نائمة... وأعانقها... ليزال عطرها في ثيابي إلى اليوم...

- مضت عليها سنة وهي تعاني بذلك الداء... حتى ذلك اليوم الأسود... سرقت مني... أخذت مني إلى عالم آخر... لا أدري له طريقا...

- ترجيتها...تمنيت أمامها... بكيت...

- لكنها رحلت...

- وكان أبي السبب.

- فقلت:

- ولماذا أباك هو السبب...؟؟

- فقالت:

- كان يخبئها في هذه الغرفة... خشية على سمعته... كان لا يريدها أن تظهر أمام الناس... لأنه يخجل بها... رغم حبها لي واهتمامها بي...
- أذكر أنها خرجت مرة... عن خطئ عند سماعي أبكي... فرأتها أحد قريباتي أمي... وأخبرت أبي... فكان يومها ذاك جحيم...
- كان يتحكم في كل حياتها...
- حتى لباسها... مأكلها... مشربها... كل شيء...
- عكس زوجته تلك العاهرة...
- كان يسمح لها بكل شيء...
- وفي النهاية... كانت سببا في العار له... وسبب ألم غيرها... فإن لم تخطئ أمي الحقيقية... ما كانت هي لتدفع الثمن...
- فقلت:

- ماذا يعني أمك الـ....؟!
- وكيف جلبت العار إلى العائلة...؟!
- فنطقت وبحروفها مرارة الحقد لتلك الوالدة... كانت تمقتها قائلة:
- أجل...
- إنها عاهرة...
- كانت كلبة مال...
- ليتها لم تكن أمي...
- ليت دمي الذي بعروقي لم يكن له علاقة بها...
- كانت تعيش مع والدي... وتلهو مع غيره...
- حتى كنت أنا نتيجة خطئها...
- أجل... أنا...
- ومن دفع الثمن...؟!!؟
- تلك المسكينة... التي اهتمت بي... وحافظت علي... واعتنت بي... في غياب والدي...

- أذكر أن آخر كلمة لها كانت...وهي تصارع الموت وبنغمة متعبة
- (بغصة دمع... مخلوطة مع الحسرة والألم... ومع الشوق لها قالت):
- كانت... كوني قوية يا ابنتي...
- سأكون معك حتى وإن فارقت الروح الجسد...
- فالموت هدوء الروح بعيدا...
- أما روحي فلن تهدأ بعيدا عنك...
- حينها رحلت للأبد...
- كان طيفها يجالسني كلما احتجتها... تمنيت لو أنها أمي الحقيقية...
- ومن ذلك الحين ضلت هذه الغرفة مغلقة... لا أحد يدخلها سواي... كنت أدخلها خفية على أبي... لأنه كان يشعر بالعار... حتى أنه أحرق كل شيء يخصها... بقيت منها هذه الحلقة

فقط... كانت المفضلة لديها... أخذتها حين توديعها...

- والحقير في الأمر...
- أن ذلك الرجل الأناني...
- لم يقم مراسم دفن لها...
- بل أخرجها في ظلمة الليل... ودفنها بقرب شجرة الصنوبر تلك...
- كانت حياتها كلها ظلام... تحت الظل... حتى في قبرها...
- ثم توجهت إلى غرفة ثانية... ففتحت بابها... كانت لتزال بجمال منظرها... كانت تبدو وكأنها غرفة ملكية... لتقول:
- مع الأسف...
- هذه غرفة... زوجة أبي...
- أقصد أمي...
- انظر...

- رغم كل هذا... لكنها لم تكن قنوعة...
- رغم كل هذا... ولم تكن مخلصة...
- لم يكفها كل هذا الترف... لتهرب نحو الهوى واللهو...
- ما ذنبي لأكون ابنتها...؟؟
- حتى والدي لم يكن يعرفني...
- وحتى بعد معرفته بوجودي ولم يعرفني...
- كانت قد أخبرت مربيتي قبل موتها...
- أقصد عشيقة والدي... أنني لست ابنته الحقيقية...
- وأنني مجرد خطأ... أقحمها في متاهة الأمومة...
- كما تصفها هي...
- الأمومة الحمقاء...
- أترى هذه الصناديق...
- كلها لها... مليئة بالجواهر...

- وهذه الخزانة... من أفخر الملابس كانت تصلها...
- وهذه العطور... كلها لها...
- والنهاية ماذا...؟؟
- عار...
- والنهاية...
- كتبت على جبيني... ابنة...

ثم رفعت أحد الأغطية التي كانت تغطي السرير... وإذا به ملطخ بالدماء... فقالت...:

- هذا دمها النجس...
- هنا انتحرت...
- هنا فرت كعادتها من فعلتها... بعدما اكتشف عشيقها أن له ابنة...
- أذكر أنه جاء إلى المنزل أكثر من مرة...
- كنت صغيرة قليلا...

- لكنني أذكر... إلحاحه على معرفة حقيقة الأمر...
- وفي آخر مرة... كانت قد هددته... بأن تخبر أبي أي زوجها...
- وأنه لن يظهر عليه نور الصباح...
- لم أفهم حينها قصدها...
- لكن بعد أسبوع من ذلك...
- جاء خبر على الصحف... كانت تقرأه مربيتي... أنه قتل...
- كانت تبدو عليها الصدمة... الخوف...
- وحين إلحاحي على من يكون أخبرتني الحقيقة...
- فهي الوحيدة التي كانت صادقة معي...
- ليكون مشهد انتحارها هي بعد يومين...
- أتذكر أنني كنت ألعب بالرواق...
- فسمعت طلقة...

- صحيح أنني خفت من صوت الطلقة...
- لكنني لم أخف على من تكون... لم أكن أشعر بها... ولا بأمومتها الكاذبة...
- بقيت على حالي...
- حتى المساء... عاد ذلك الرجل المدعو أبي... فسألني إن كنت رأيتها أم لا...
- فقلت أنها بغرفتها...
- ولما فتح الباب... وجدها عائمة في دمائها...
- حزن كثيرا... وبقي على حزنه سنتين كاملتين...
- كان قليل الحديث معنا...
- كان يهرب إلى مكتبته... يمكث فيها معظم وقته... مع قهوته...
- وبعدها أخذتني إلى المكتبة التي كانت قد دخلتها قبل ذلك... وأخذت منها الكتاب... لتقول مرة أخرى:

- هذه المكتبة... لأبي...
- كان يغلق على نفسه هنا... لا أحد يدخل عنده...
- سوى عشيقته...
- أقصد مربيتي...
- كانت هي حافظة سره... رغم قساوته عليها... خاصة بعد وفاة والدتي...
- كان يكره الضوء... لا يحب أن يملئ الضوء أرجاء المكان الذي يكون فيه... من حين وفاة زوجته تلك الــ...
- أما أنا فكنت عكسه أخاف الظلام كثيرا... وكان يجبرني على أن أجلس في الظلام مدام هو في المكان...
- حتى أنه كان يعاقبني...

- كان يضعني في غرفتي وحيدة... ويأخذ الشمعدان... ويغلق النوافذ... ويحجب ضوء الخارج عني بالستائر...
- كان حزنه على زوجته جنونيا...
- صحيح أنها فارقته بالجسد...
- لكنه كان يقول أنها لتزال معه... وأنها لا تريد النور...
- إنها تريد أن تبقى معه في الظلام...
- وكان ذات مساء لوحدة في غرفته... يفتح كتابه ذاك الذي اعتاد على تقليب صفحاته... بالزاوية... بعيدا عن منظر الجميع... حتى إذا به يصرخ عاليا... وينادي بي... وكأنه بركان انفجر بعد صمت طال عليه... كنت أرتجف من الخوف... كنت أعلم أن ذلك لن يمضي على خير... وحينما اقتربت منه...

- ومع ابتسامتها تلك المخلوطة بالالم قالت بعد شهقة طويلة
- صفعني... ودموعه كالنهر...
- وكأنه نادم لما يفعل... أو لما سيفعل...
- أما أنا فوقفت بدون حركة... أنتظر صفعات أخريات... بالرغم من ذلك فصفعاته لم توجعني قط... فقصة زوجته تلك... المدعوة أمي كانت أكبر صفعة أخذت مني سعادتي...
- لكنها لم يكفها أخذ سعادتي...
- بل أخذت كل شيء...
- كل شيء...
- لم تكن أما... بل كانت جحيما...
- تخيل أنها بقيت تعذبني حتى بعد موتها...
- كان زوجها يقرأ رسالتها التي كتبتها قبل انتحارها... كل لحظة... وكل مرة كان يقس علي أكثر...

- كنت أعاقب بسبب تلك الحروف تحت الظلام... كان يقول لي:
- يجب أن تتعلمي من السواد الذي حل بسببك...
- ستعيشين على هذا اللون مدى الحياة...
- لتكون حياتك حدادا كما... كما كانت بسببك...
- والأصح من ذلك القول... أن حبيبته وزوجته التي مات قهرا عليها، هي من حولت حياته وحياة الجميع إلى نكد وحزن، وحداد لا متناهي...
- وما ذنبي أنا...
- فأنا لم أجبرها على الوصول إلى ما وصلت إليه...
- أنا لم أجبر أحدا بالوقوف أمامي... أو الانحناء لأجلي...
- هي من قتلتني بالحياة...
- تحت حكم العار الذي خلفته على جبيني...

- لتكفف دموعها... محاولة تجاهل أوجاعها تلك... وكسر الخوف في داخلها... لم تكن تستطيع إخفاء جروحها... فمنذ طفولتها بات لونها غير الذي تريد... وقدرها أيضا... لتصمت لحظة مستجمعة قوتها ثم تكمل الحديث... قائلة:

- كانت الرسالة... مكتوب فيها أنني السبب وراء رحيلها...

- ''لقد فعلت ذلك لأعيش أنا...

- وأنني لست ابنته...

- هنالك الأمر بات معقدا أكثر...

- وتغيرت كل تعاملاته معي...

- كان يكرهني... لدرجة أنه كان يقرأ كتابه هذا... المسمى بكتاب الموت... ليجد طريقا يخلص فيها حياته وحياتي مما فيه...

- كان يقول لي أنه لن يتركني مهما فعلت...

- وأنه سيكسر كل طريق لسعادتي...
- وفعل...
- مضت على الرسالة أشهر... كلها كانت حزينة... مليئة بالآلام... حتى ذلك اليوم... طلب من الخادمة أن تحضر له فنجان قهوته إلى المكتبة... وبعد ذلك لم يصدر له صوت قط... حل المساء... لكنه لم يخرج... فذهب جدي إلى المكتبة... لينظر سبب عدم خروجه... فوجد قهوته على الأرض... وبقع الدم على كتابه هذا... وهو لا شيء يظهر جرحه... كان الأمر يبدو خياليا... ولم تعرف السبب ولا المسبب أبدا...
- لكنه... لكنه لم يتركني...
- بل كان يظهر... طيفا...
- كان يقف حيث أقف... ويجلس حيث أجلس...
- ولا يترك نورا في حياتي إلا أطفأه...

- وبعد تلك الحادثة... ترك الكل المنزل... ولم يسأل أحد عني... وكأن شيء يغطي صورتي في داخلهم...
- أما هو...
- كان لا يترك سبيلا إلا وظهر...
- حتى احتجزني هنا... في تلك الغرفة... جعلها معبدا للتكفير عن خطئي زوجته تلك...
- كان يجلدني كلما حاولت الخروج... ويخيفني...
- كنت أعشق الرسم لكنه غير الألوان... كنت أرسم بألوان كثيرة... وعندما أعود... أجدها بلون واحد...
- أذكر أن آخر مرة...
- كان قد كتب على الحائط...

- ''إياك والخروج من معبدك هذا... فلا نور خارجا.. حتى تخرج روحها من ظلمة القبر...''
- وهذا يعني أن لا حياة لي بعدها...
- حاولت الفرار منه... لكنه لا يريد تركي...
- لن يدعني وشأني...
- أنا أعلم...
- أرجوك أخبره أنه ليس ذنبي...
- بل زوجنه من أخطأت...
- لتضع أصبعها كعادتها على فيهها... قائلة بكل خوف...:
- شش...
- إنه هنا...
- لحظة واحدة... أغلقت النافذة التي كانت تدخل النور إلى الغرفة...

- لتركض هي بكل قوتها نحو الزاوية... ململمة نفسها... متوجعة...
- قائلة:
- آسفة...
- أقسم أني لن أفعل ذلك مجددا...

كانت تبدو وكأن أحدهم يبرحها ضربا... لتشير لي بأن أرحل... وحالها يسوء ويسوء... لم أستطع الرحيل... وهي على تلك الحالة... تقربت منها محاولا الأخذ بيدها... للهروب خارجا... لكني أخفقت... كان هناك شيء يجذبني إلى الوراء... وهي تهوى... مضرجة بالدماء... نحو الأرض الباردة... بجسده النحيل ذاك... وثوبها الرفيع... لتغرف فاهها بالدماء...

- كانت تنظر بي... وكأنها تشكرني عن سماع قولها ذاك... ووجودي بحياتها القصيرة التي

كادت أن تبدأ... لكنها انتهت... مع تنهيدة صغيرة... ورحيل دون عودة... وبعد موتها... تحررت من قيدي ذاك... وهرعت نحوها...

- أحركها...
- أناديها...
- لم تجب...
- ليسكن ذلك الظلام داخلي أنا الآخر... بقيت أتذكر تمنيها للنور... فدفنتها على قمة التلة التي كانت تشرق الشمس على مطلعها.... وعدت نحو غرفتها فأخذت تلك الألوان... وذلك الكتاب...
- وما إن وصلت إلى منزلي... رحت أقلب صفحات ذلك الكتاب لأجده بلا حروف... بل كان مذكرة لوالدها... كان رجل مشهور... عاشق للفن والكتابة... جعل من كلماته ومذكراته مشاركة مع محبيه... لكن هذا

الأخير غير الذي كان في كتبه السابقة... بل كانت مليئة تهديدات... وتوعدات لتلك الفتاة... التي كانت تسمى "غدق"... كمثل اسمها فعلا في جمالها... كان اسمها منطبقا تماما على صفاتها... في حنانها... براءتها... طفولتها...

- كان ذلك الكتاب... سم لحياة "غدق"... لم ينهي كابوسه... حتى... حتى أخذها... وكسر سعادتها... في أول الأمر عكرها... بما عاشت من حياة... كلها ملامة على شيء لم يكن بيدها... ولا كانت هي السبب في الوصول إليه... بل تحملت خطأ أمها... وثمن ذلك عيشها تحت جبين ملطخ بالعار... على أنها ابنة لهو... وألم الحقيقة التي كانت طعنتها غادرة من القدر...

- حياتها تلك... كانت تبحث عن الابتسامة داخل تلك الدموع... والسعادة داخل ذلك الحزن

كله... كانت تفتش عن حريتها التي قبض عليها ذلك اللئيم... ذلك اللون التعيس... كانت رغم تعاسته إلا أنها تحن عليه... بملاعبته بفرشاتها تلك...

- أما الكتاب فكان شيء غير عادي... كان عبارة عن حفر في الأوراق... ربما كان من صنع أناملها... لأنها كان رسم من خيال باحث عن الصدق والحرية... باحث عن الهدوء... وعن النور... كانت تلك الأوراق محفورة على شكل أطيار... إحداها بالقفص والأخرى غادرته... كانت رسالتها في تلك الحركات هي ما بداخلها...
- مضت ساعات أتأمل ذلك الكتاب... محاولا أن أجمع بعض الحروف منه... فجمعت بعض الكلمات... كانت كلها جنائزية مليئة بالدماء

والتهديدات... وبينما أقلب الصفحات... صادفتني ورقة بيضاء مكتوب عليها...:

- "يجب عليك العودة لمسرح الجريمة.. لتتأكد من المقتول... فربما فرت روحه إلى كوكب آخر..."، شعرت حينها وكأنه يخاطبني بتلك الكلمات... لأقف من توي... متجها نحو منزلها... مفتشا على شيء لزلت لم أجده في نفسي بعد... لأقف على مكان موتها فعاد ذلك المنظر الشنيع على خيالي المعتوه... الذي بات يربطني بما مضى... هدني حنيني إليها... وكسرني أملها الذي بقي معلقا بين أشلاء غرفتها... التي شهدت ألمها ذاك... لأرتمي على مكانها... فوق قطرات دمها... وبيدي ذلك الكتاب... الذي كانت تسميه... حريتي بالموت... رغم عنوان الذي كان يدفع على لحن اسمه ... "الموت".

- كنت أحدثها...
- أبحث عنها...
- أسألها إن كانت تسمعني قائلا:
- غدق... هل تسمعينني؟!
- أخبريني أرجوك...
- هل تسمعينني...؟
- غدق...
- ليفر بي حزني إلى ظلام داخلي... لتخيم غربان الوحدة على قلعتي... فتنوح دون رحمة بذكريات كلها بثوبها الأسود...لتشعرني أنني أصبحت أنتمي إليها في لحظة ما... كان الخوف يحدق بي من كل مكان...يغتال تلك الأمنيات... بتذكيرها أنها مات قبل أن تولد... دقات لعقارب الساعة المقابلة لذلك الحائط الأخرس... ليته ينطق بحرف... أو بحركة... تكسر ذلك اليأس اللعين... لتتأجج حروف

اسمها بداخلي... فتستنجد للخروج... بصرخة طويلة عريضة... لتحركه حبات التراب التي بدأت بالتراس على قبرها الصغير ذاك... لينطق الصمت على جمال اسمها... ولحن ينعيها...

- غدق...
- أرجوك... أخبريني كيف أخرج أمنياتك للحياة...؟!
- كنت مجنونا... معتوها... منفصما...
- وصوتي مختلطا بين شهقة وابتسامة مجنونة... كان وسام الخوف يتقدم نحوي... لتنطق هي... ربما هي...
- كلا... ليست هي...
- وكيف تكون...
- وقد دفنتها بيدي... ؟!!
- أجل... إنها هي...

- ها هي تتحرك... بخفتها... بطفولتها... بصمتها... بجسمها النحيل ذاك...
- غدق... أهذا أنت؟!
- لتجيب بصوت... كله رقة... ملئه الغبطة... وكأنها تزف لي خبر حريتها... قائلة متقربة مني... واضعة يدها الصغيرة على وجهي... ناظرة إلي بكل ثقة...:
- أجل... أنا غدق...
- أنا هنا...

ـــ ولكن...

ـــ كيف...؟!

ـــ ألم...؟!!

كانت تلك إجاباتي المعتوهة مثلي... تخرج بتفاهاتها... ولتكثر السؤال... دون ترك فرصة للإجابة على كل ما بداخلي... لتقول:

- أجل...
- أنا هنا...
- بقربك... وحولك...
- صحيح أن جسدي هناك تحت التراب...
- ولكن روحي هنا حرة... أجل...
- أنا حولك...
- والآن يجب أن تخرج من ظلامك أنت...

لأرد قائلا:

- ولكن...
- كيف... جسدك تحت التراب... و...!؟!

فتبسمت بهدوء كعادتها ثم قالت:

- ألم تذكر قولي لك ذلك اليوم...
- أن هناك موت بحياة الجسد...
- وحياة بموت الجسد؟!
- هكذا أنا.

- كنت ميتة.
- والآن أنا حية بوجودك إلى جانبي...
- فالروح من تحيي الجسد.
- والروح من تحب.
- والروح من ملك الحرية...
- أما الجسد.
- فهو سجن يحميها مرات.
- ويعاقبها مرات...
- لتقيض بذلك المقال نحو أرجاء ذلك البيت... بضحكتها العالية... المعتادة مع خلاء ذلك المكان... لتملئه بالألوان رغم كل ذلك السواد... لتضع لمستها المختلفة هذه المرة... مشرقة أرجاءه بضياء وجهها بدل النور... لتعود إلي فتأخذ بيدي... قائلة:
- إياك أن تطبق على نفسك في جحر هذا اللعين...

- سيسكنك صومعته هذه.
- ليخرج بحياتك نحو الحياة...
- أما أنت فستبقى.
- ناسكا مخلصا لشيطانه... في هذا المعبد...
- ثم نظرت إلى يداي... فوجدت ذلك الكتاب يسرق من حضني صدقي... فأخذته ورمته... قائلة:
- لا أريدك أن تطلعه على ما تخفي بداخلك.
- فإنه بات لي وحدي...
- وإن أردت أن ترى شيئا آخر من حياتي تلك.
- فتعال.
- خطوة خطوة...
- لتصل أمام لوحتها القديمة... فمزقتها... بكل ثقة... دون الرهبة التي كانت تسكنها في وقت سبق أمامها... وهي تقول...:
- يكفيك ألم...

- لست أخشاك بعد الآن...
- فلتذهب أنت وعاهرتك إلى الجحيم...
- يكفي ما سرقتها من حياتي...
- ثم توجهت نحو ركن البيت... الذي كانت إذا أوجعها واقعها فرت إليه ...مبتسمة بمجرد الوقوف أمامه... وكأنه أمان يسرق من ضوء الشمس يخفي صدقها ذاك... ثم قالت:
- أعلم أنك تريد معرفة حياتي أكثر...
- عليك فتح الباب الذي بهذا الحائط.
- ستطل على النور.
- كنت أسرق منه نومي...
- وحنيني.
- وأحفظ فيه أسراري.
- تعجبت من أمرها ذاك... وقلت:
- ولكن كيف أفتح الباب والحائط؟!
- قالت:

- إذا أردت ستفعل.
- تذكر تفاصيل جلوسي.
- ودندنتي...
- ومنذ ذلك الحين اختفت... لم تعد تظهر إطلاقا... حاولت وحاولت... لكنها ما عادت لتظهر... كنت أبحث عن تلك الدندنة في ذاكرتي... لكنها باتت باهتة... وكأنها تذكر بعد غثيان... رغم عيشها بداخلي...
- مضت سنة على ذلك الحال... وبدل من النسيان... كان الحنين والشوق إليها... وكأنني عرفتها لتوها... اللعنة... لست أدري ما يرجعني إليها... أهو الواقع أم الخيال؟!
- كنت أصف نفسي أمامها بالمنفصم... لأني أقف بين ذكرياتها وكأني عاشق... أما ذا عدت إلى أمري... وجدت نفسي أحاول الفرار من ذلك العرس الجنائزي اللعين... وكان فراري

منه إلى لعنة أكبر... وتعاسة أعمق من ذلك البعد الذي أخذها مني....

- وذات مساء عزمت على فتح ذلك الباب... والتخلص من ذلك الكابوس... والعودة نحو حياتي القبلية... انتظرت حتى المساء... وما إن قاربت الشمس المغيب... وقفت على بابها... وإذا به يفتح فدخلت مباشرة ونحو غرفتها كانت وجهتي... وحين أخذي السلم شعرت برجة تحت أقدامي... وكأنه يتحرك... لم أعر له اهتمامي... كنت أظن أنه يتحرك من قدمه لا غير... خطوت خطوة ثانية... ليتحرك مرة أخرى... لتسقط صورة كانت معلقة على الحائط.... كانت صورتها وهي أصغر بعض الشيء... وما إن حملتها... حتى تحول لونها إلى أسود... وكأنها صورة مسحورة...

غريب... حتى لونها ذاك بقي يطاردها أينما وجدت...

- أكملت خطواتي نحو الأعلى... وبيدي بقيت صورتها تلك... وكلما أخطو خطوة... يتحرك الدرج بقوة أكثر... وكلما أسكن يتوقف... وحين بلغت آخر الدرج... شعرت بشيء يجرني نحو الأسفل... وكأنه يرفض الوصول إلى غرفتها... تمسكت بالحائط... مخافة السقوط... لكن دون جدوى... فتلك القوة كانت أكبر بكثير مما أملك... لتزيد دحرجتي على السلم حتى بلغت الأرض... فارتطمت بالحائط... فلم أذكر بعد ذلك شيء.
- تيك... تاك...
- تيك... تاك...
- الساعة الثانية عشرة ليلا...

- أنا يغير المكان الذي وقعت فيه... والصورة...

- أين تلك الصورة التي كانت بيدي...؟!

- أذكر أنها بقيت بيدي حتى وصلت إلى أسفل الدرج...؟!

- ومن أوصلني إلى هنا...؟!

- غدق...

- هل أنت هنا؟!...

- أعدت المناداة عدة مرات... لكن لا جدوى... كان المكان يبدو أكثر خلاء، مما أتوقع... كان يردد صوتي... بكل بشاعة ملوثة بصوت الخوف...ورغم ذلك فلم أستسلم... وأعدت المحاولة للمرة الثانية... وتشبثت جيدا بالدرج لأصل إلى نفس المكان... نفس الدرج... إنه الدرج الرابع... ليحدث الأمر نفسه... حركة أعنف... قوة أكبر... لأسمع صوتا يصرخ...

يشبه صوتها... قائلا وكأنه ينبهني أو يستنجد بي... فلم أجزم فيها أيهما يريد...:

- "آدام..."
- كانت صرخة خيالية... قوية جدا... وكأن الذي يأتي بعدها عاصفة... حاولت التحقق من مكان الصوت... لكني لم أستطع... فكان البيت يردد ذلك بخلوته اللعينة تلك... وبينما أنا أواجه ذلك التشتت تفرق بصري هنا وهناك... لحظة واحدة... ليقف بي على باب المكتبة المقابلة تحت الدرج... إنها المكتبة التي وجدت فيها جثة والدها... كان بابها يروح ويجيء... وكأنه يلوح تعال... نزلت مسرعا... وكلي فضول... تقربت بهدوء نحو الباب... ليتوقف عن الحركة... فدفعت لأرى من يكون بالداخل... كانت الغرفة مليئة برائحة السجائر... والأدراج محبوسة بكتبها ببيوت العناكب...

والغبار... والمنظر نفسه... الذي شاهدته معها... لكن... الكأس ليس كما كان... أذكر أنه كاد يسقط... وقطرات القهوة التي كانت فيه أخذت قسطا من الراحة على الأرض...

- أما هذه... فليس نفس الصورة...
- إنها مختلفة...الصورة كانت لباقة ورود...
- أما الآن فهي لامرأة... بثوب... بثوب أسود؟!
- كيف يحصل هذا...
- وكلما نظرت إلى الصورة... كانت تتحرك... وكأنها تعاني عقاب الجلد من الحائط... أو من ذلك اللون المسكوب عليها... ليتحرك الباب نحو الغلق... كان الذعر قد تملكني... لكن فضولي ذاك أكبر من أن يقهره الخوف... كنت حينها أراقب كل زوايا المكتبة... بدت وكأنها لوحة من لعبة في اكتشاف الاختلافات... فلما تحركت خطاي نحو البحث بين تلك الرفوف...

ارتطمت في كرسي... كان لطفل صغير... ليصدر صوتا... إنها رنة لمنام الأطفال... مع ضحكة طفل صغير... باتت غرفة المكتبة مدواة به... كان يتردد... ويترد... حاولت إقافه لكن لم أجد سبيلا... فأعدته على قدمه الخشبية العنيدة تلك وتركته... وبينما أنا على أمري ذاك بدأت تظهر أمامي... دعسات أقدام حافية... ملطخة بالدماء...

- مما أوقعتي ذلك المشهد إلى الخلف... تتخبطني الحيرة والذعر... وراحت تلك الخطوات تتقدم... وتتقدم... فتبعتها... كان همي ذلك الحين معرفة السر وراء كل ما يحدث... بعدما كان أمر بسيط... وهو معرفة قصة تلك الفتاة... كنت أحاول تمييز الخطوات وذلك الأثر... هل هي لامرأة أم لرجل... لكنها لم تظهر... لأنها تجر وكأنها لشخص جريح...

متهالك... أثقلته جروحه وأوجاعه... فما استطاع أن يحمل حتى أقدامه تلك...

- تبعت تلك الخطوات... لتقف على كرسي متحرك... ليتأرجح ذلك الكرسي... وهناك أيقنت أن في القصة أمر... وأن البيت به روح... أما بقيت للانتقام... أو اظهار الحقيقة... صحيح وقتها كان المنظر يطلب مني التمعن... لكن فكري راح يبحث عن أمر آخر وهو أن أجد كتاب أو مذكرة... أو حتى ورقة... تدلني إي الطريق التالي... فرحت أقلب تلك الرفوف... رفا رفا... ومن سرعتي... كنت أعيد كتاب وأسقط ثلاثا... والعجيب أن تلك الكتب تعاد... وكأن أحدا ما يعيدها إلى مكانها...

- فتشت معظم الكتب... كلها كانت كتب غربية غربية... منها السياسي والعلمي والأدبي والفلسفي... كلها غير التي أبحث عنه...
- لحظة واحدة... انقلب ذلك الهدوء اللحظي إلى فوضى... ورعب بجزئه الثاني... بينما كنت منهمكا بالبحث... سمعت وقعة فنجان القهوة... ودحرجته على الطاولة... وعندما ركضت نحو... وجدت به قهوة ساخنة... والدال على أمرها ذاك هو... البخار الذي كان يخرج من فيه الفنجان... وكأنها روح تعانق الهواء... لتعرج إلى السماء... مما دفعني أن أتأكد من دفنها... فغمست أصبعي فيها ورفعتها إلى فمي...
- ماذا...؟!
- القهوة... دافئة...؟!
- ولكن هذا الكأس منذ عشر سنين تقريبا...

- وكيف بقيت قهوته دافئة...
- هل هناك أحد...؟!
- من هناك...؟!
- ازدادت حركة الكرسي... وصوته الناعي للمشهد ذاك... لتعبدني إلى الخلف قليلا... ورائحة السجائر تزداد شيوعا في الأرجاء... كنت أسرق خطاي نحو الكرسي... ونظري أرسله نحو فراغات الرفوف... فربما يجد الحاضر الغائب هناك...
- بقيت على أحجية البحث... أسترق أملا في الخروج بأمر ذلك الصوت... حتى لاحت عيني صندوق... يختبئ وراء كتاب كبير... كان الصندوق صغير بعض الشيء... فأخذته... وعند فتحه... وجدت فيه... سجارة أخذت نصفها النار... وزر قميص معهم صورة لامرأة ورجل تبدو قديمة... لترحل به

حيرتني إلى اللعنة مرة أخرى... والحديث مع نفسي...

- ولكن الصورة... الصورة تشبه...!!
- الصورة تشبه تلك الموجودة...!!
- المرأة تشبه التي كانت على مدخل الباب... المعلقة على الحائط...!!
- لحظة لأتأكد...
- ماذا...
- الصورة مختلفة مرة أخرى...؟!
- كيف عادت إلى سابقتها؟!
- قلبت الصورة ألف مرة... فتحت الإطار... ونظرت جيدا... لكن لم تظهر أي صورة مشابهة للتي رأيت في دخولي... فزاد ذلك في عزمي أكثر... وتناسيت ذلك الخوف... ورحت أجد وأكد في البحث... بين تلك الأغراض كلها... تعبت من البحث... أنهكني

ذلك... سألقي بجسدي المتعب هذا هنا... على الأرض وأسنده للحائط... فربما أستجمع قواي لمواصلة البحث... رغم أنني كنت أعلم أن فرصة إيجاد شيء يخص تلك القصة بات من النادر أو المستحيل قريبا... فأطلق ضعف جسدي... لبقع على الأرض... مع لهثه من ضمئي... يزداد فيها كل مرة عطشي للماء وللحقيقة مرة أخرى... حتى سمعت صوت فراغ تحتي... إنه يشبه صوت على علبة خشبية...

- ودون تفكير... أو تأني... أرهفت السمع لذلك الصوت... مع طرق خفيف بيدي... كانت الأرضية خشبية... وكلما أطرقها تغير صوتها... وبعد محاولات عديدة... وصلت إلى شق صغير على تلك الأرضية... لا يبدو أنه كان صدفة... حركته... فإذا به يتحرك... لكن

لم أستطع رفعه بيدي... فبحثت عن شيء حاد بعض الشيء ليساعدني على رفعه... وجدت حينها قضيبا حديديا في إحدى زوايا الغرفة... فتحت بعد ذلك تلك الأرضية... فوجدت أنها عالم آخر... يخرج إلى أرض ذلك المنزل... وأن ظلامه يلون البيت كله... بما يخفيه... تتبعت الأدراج التي كانت تتسلل نحو غرفة أوسع من التي فوقها...

- كانت تلك الغرفة تبدو وكأنها مسلخ... كانت باردة جدا... ولها رائحة بشعة... وطاولات تشبه طاولة العمليات... وسكاكين من كل الأشكال... وحادة... منها ما هو ملطخ بالدماء... ومنها ما هو لا مع... وكأنه ينتظر ذبيحته... وعلى جدران تلك الغرفة أيضا... كانت هناك إطارات صور معلقة... لكنها ليست كالتي تعلق بين أحضانها صورة

عادية... بل كانت تحمل أطرافا وقطع من أجساد بشرية... عند رؤية ذلك شعرت بالغثيان... وكأن المكان بدور حولي...

- أخذني ضعفي إلى التهاوي على الأرض... شاكيا إليها ما يجري...وما يثقل كاهلي... لترحل بي اللحظات في غمضة عين متعبة دون إذن مني... فتفتح لي الباب على صورتها... وهي تراقص النسيم تحت زخات المطر... وذكرياتنا سويا... لتتخطفها مني تلك الصورة القبيحة... التي أظهرت لي سواد الرحيل لها...فأخذت مني مرة أخرى... لكن هذه المرة... رحلت وهي تناديني... وعلى صرختها تلك... أفقت... لم تظهر لي في أول الأمر إلا ضباب... يغطي كل ما هو حولي... أو يغطيني... فلم أعد أفهم شيء... حاولت التحرك... لكن جسمي ثقل أكثر... وكان كل

شيء يؤلمني... وزاد عطشي... ونفسي كان يخونني مع تلك الرائحة القبيحة.. تقلبت على جانبي... محاول التمسك بشيء يعيبني على القيام... حتى ظهر أمامي نفس المظهر الذي شاهدته بأول دخولي... أقدام عليها دماء مرسومة على الأرض... ولكن هذه المرة... ليست كالتي من قبل تفصيلا... بل كانت مع جسد... لم أشاهده كليا... لكنه كان هو الذي يمشي ويترك أثر تلك أقدام مبتعدا عني... مددت يدي محاولا أن أوقفه... لكن دون جدوى... ورحل...

- تيك... تاك...
- تيك... تاك...
- ساعة حمقاء...
- رنة الموت... مع ضحك الطفل الصغير...
- حركة لأجزاء الغرفة كالباب والطاولة...

- ثم رحيل إلى عالم آخر... أذكر أن آخر شيء أغمضت عليه عيني هو عقارب الساعة... كانت لا تظهر جيدا... لكني أطبقت عليها... كانت الساعة الرابعة صباحا... كنت أظن أنني سأستريح للأبد... بعد ما شعرت به من ألم... وإرهاق... لكن الوضع كان أسود مما توقعت... بل كانت تلك الاستراحة مؤقتة... تبحث لي عن المزيد من الأتعاب...
- انقضت تلك السويعات المتبقية من الظلام... ليمر اليوم كاملا بعدها... ثم يعود الليل... مرة أخرى... فيوقظني على سكبة ماء... ربما كنت أهلوس بها... طالبا إياها... وحين أفقت مذعورا... وجدت أني أنا من حرك أحد الأعمدة التي كانت تحمل دلو ماء... فانسكب على وجهي... أو ربما لست أنا وتهيأ لي ذلك فقط... لأجد يدا تمتد إلي... لم أكن أبصر جيدا

من الماء المسكوب على وجهي... وجفون المبللة... فأمسكت بها... مع تفاءل أني نجوت... ولا بد من الخروج كالعادة... بعد أمل... ينكسر الحجر... ويذوب الشمعدان مع شموعه... ولما وقفت على قدماي ومسحت وجهي... كنت أشكر الذي ساعدني قائلا:

- شكرا لك لمساعدتي...
- كدت أن أفقد الأمل هنا...
- لأسمع صوت قهقهة ماكرة... تتردد في أرجاء الغرفة... وحينما فتحت عيناي ورفعت رأسي... وجدت نفسي لوحدي... كنت أحسبه كابوسا... لكنه أصبح حقيقة... وأظن أنني لن أخرج منها أبدا... فإما يأتي بوحي الخيال بات قاعدة... تطبق نظرياتها بي أنا...
- بقيت تلك القهقهة تتردد... وتتردد... وكأنها تعاقبني لفضولي... إنها تنتقل هنا وهناك...

وصوت الساعة المزعج... وأصوات اختلطت معها... لأغلق أذناي... هاربا من تلك الأصوات وكأنها لعنات تلاحقني... محاولا إخافتها بصراخي... لحظة... لقد توقفت...، إني أتصبب عرقا...

- يجب أن أخرج من هنا...
- لا بد أنني سأجد طريقا...
- كنت أرد كلامي هذا متوجها نحو الطريق الذي دخلت منه... صعدت الدرج... وحاولت دفع البلاط الخشبي... لكنه كان محكما جدا... لم أستطع تحريكه... ثم نزلت باحثا عن القضيب الذي فتحت به... فلم أجده... ربما تركته خارجا...
- اللعنة... كيف فعلت هذا...؟!!
- ما الحل الآن...؟!!
- لا... لن أبقى هنا أكثر...

- لا بد من طريق...
- حاولت في أرجاء تلك الغرفة كلها... فلم أجد مخرجا... لأصرخ قائلا بعد يأسي...:
- لا... لا أريد البقاء هنا...
- لا أريد الموت في ظلمة هذا المكان اللعين...
- كنت أخفي وجهي عن تلك الصورة المعلقة... وعن كل ذلك المكان... وبعد صمت لم يظل طويلا...سمعت همسا يقول:
- وهل نسيت ما كنت تبحث عنه؟!!
- هناك حرية روح تنتظرك...
- رفعت رأسي مسترسلا... لأجد... رجلا يقف أمامي... أثوابه ممزقة... يده مقطوعة... نازفة بالدماء... و وجهه محروق نصفه... وقدماه مقطوعة الأصابع... فصرخت مذعورا من هول المنظر... وتراجعت نحو الخلف... هاذيا بما لا أفكر فيه قائلا:

- من... من تكون...؟!
- وماذا تريد مني...؟!!

وأنا أتراجع إلى الخلف زحفا... وهو متقدم نحوي... حتى قاربت أحد الطاولات... كانت عليها عدة سكاكين حادة جدا... كدت أن أوقعها... سقط أحد السكاكين... فتلقاه بيده الأخرى... التي كانت لتزال مكتملة... فقطعت هي الأخرى... كنت أظنه يريد أذيتي... لكني كنت مخطأ... كانت تلك اللحظة كموت يختلج بي... فظل الطريق إلي... كان مشهدا مرعبا جدا... بقيت أشاهد يده التي تتخبط على الأرض... تسأل رأفة من ذلك الألم... لحظة واحدة... اختفى كل شيء... لم يبقى أثر... لا للرجل... ولا لتلك الدماء... ما بقي منه سوى تلك الجملة التي قالها تتردد في أذناي... وهي أن هناك حرية روح تنتظرني... عاد اللغز لأوله... بدى كالمتاهة... كلما أقول انتهى يبدأ من جديد...

- حملت ضعفي ذاك... وقمت أبحث عن سبيل لأفك ذلك اللغز... كان الجو كل لحظة يزداد برودة... وظلام... قمت بجمع بعض الفتات الخشبية... ورحت أطرق الحديد على بعضه... حتى أنتج شرارة... زفت بتلك الفتات... فأشعلت النار... وأضيء لي المكان... وما هي إلا لحظات حتى تسلل كالهواء بين لفحات النار... مباغتا إياها محاولا إخفائها... وعلى ضوئها ذاك ظهر شيء... كان يبدو كالكتاب... لكنه بالحائط... اقتربت منه... ونسيت أمر النار... وما إن وضعت يدي عليه انطفأت... لكنني هذه المرة وصلت لما أريد...
- أخذت ذلك الكتاب... كان غريبا نوعا ما... ولم ألاحظ ما فيه في الظلام... أسرعت نحو أخذ السلم... محاولا فتح الطريق الذي دخلت منه مرة أخرى... لكنه استعصى... مرات

ومرات... دون فائدة من تلك المحاولات الفاشلة..، تذكرت... فحاجتي للنور لازمة وقتها... هاتفي...

- أين هو...؟!
- أين وضعته...؟!
- آه... إنه هنا...
- أشعلت مصباح الهاتف... ورحت أفتح ذلك الكتاب... كانت صفحاته تحمل رائحة كريهة... ولون الحبر فيه مختلف عن المستعمل في واقعنا... أما كلماته... فكانت ذكريات شنيعة... تخلد هناك... كان كل حرف فيه يحمل قصة ضحية... وقعت تحت أيدي ذلك الجزار... لم يعرف الرحمة... كانت تلك الحروف كلها بدماء كل مقتول... كان يعاقبهم... ثم يترك ذكراهم بالحائط... وكل شخص قدم له أذية ولو شكا بعضو ما... كان

قد قطعه كما قال... وتركه شاهدا عليه... كان مجنونا... أو منفصما...

- قلبت بضع صفحات من تلك المذكرة... فوجدت إحداها بيضاء ليس عليها حرف واحد... سوى بعض خصلات الشعر... ولما فتحت الصفحة التي بعدها وجدت فيها أن من قتل والد زوجته... لأنه رفض أن يزوجه إياها... رغم معرفته بحبه لها... وقال أنه علق شفاهه على حائط الركن الذي يقابل الكتاب... حينها نظرت فوجدت حقيقة ذلك... وأنها حقائق لا هلاوس... كان اللعين قاتل... لا أحد يعرف أمره... سوى كتابه ذاك... ثم عدت لأقلب صفحات أكثر... إلى أن وصلت إلى مقتل والد "غدق"... كان يعرف أنها ليست ابنته من البداية... وزوجته من طلبت منه ذلك كعربون لحبها كما ذكر...

- اللعنة... ما هذا العربون...؟!
- هل جنت... أم اختلط عقلها مع دمها؟!
- وقال الرجل في ما كتب... أنه ومن شدة هوسه بها... وافق... وكان شرطها أن تختار من تريد... فاختارت شقيقه... لأن يكون عشيقها وأبا لابنتها...
- يعني... أن "غدق"... ابنة شقيق المزعوم والدها...
- والمدعو والدها... هو عمها...!!
- بعد فعلتها تلك... هجرت البيت لشهور... وبعثت له بعشيقة... حتى ينساها... لكنه لم يفعل... كان يعاقب عشيقته تلك بدلا عن زوجته... حتى يوم عودتها... كانت قد أنجبت "غدق"... كان يعترف بجمالها... لكنها لم تحبه يوما... ولحبه لزوجته... وجنونه بها... أعطى عشيقته دور تربيتها... فتطبعت على

طباعها... وأحبتها أكثر من والدتها... لذلك أصبح يكرهها لكرهها لوالدتها... كان يصفها بالباردة... كغرفة مربيتها...

- إذن... ما قالته "غدق"... كان صحيحا...
- اللعينة... جعلتها بسبب فعلتها تدفع الثمن.
- وأن غرفة مربيتها كانت باردة...
- مازلت أقلب الصفحات في أمره وزوجته... حتى أشعر بشيء يتخطفني... ويرميني... من مكان إلى مكان... كأنه أحدا يكسر عظامي غيضا... أو انتقاما... فأصبحت أترجاه... أن يرحم ضعفي...
- أرجوك... توقف... من تكون...؟!
- لما تفعل بي هذا...؟!
- ماذا فعلت لك...؟!
- لما لا تظهر أمامي...؟!؟

- كانت بعض كلماتي... ضعفا... وأخرى تبدي قوة لكنها من ضعف... نالت مني تلك الجدران الباردة... القاسية ضربا... حتى أصبحت لا أشعر بمعظم جسمي... وباتت دمائي... تغطي تفاصيلي... ثم ظهر أمامي... ذلك الرجل... كان ذا وجه قبيح جدا... بيده الكتاب الذي كنت أقرأ... ثم قال وهو يرفع الكتاب...:
- أتريد هذا...؟!
- أم تريد معرفة ما فيه...؟!
- ألم تخبرك جميلتك... ماذا يحدث لمن يتحدث بالسوء عن زوجتي؟!
- ثم دنى من وجهي أكثر... موجه إياه بيده نحو تلك الأعضاء المعلقة على الحائط... ليعود إلى قوله:
- ماذا تريد أن يبقى ذكرى منك...؟!
- ها... أخبرني...

- يدك مثلا... أم شفاهك...

(ليقلب وجهه ذاك المرعب إلى أرعب مما هو عليه... ثم يقول بعد رميه الكتاب...)

- أم شفاهك التي سببت بها زوجتي...؟!
- ثم توجه نحو الطاولة... التي عليها السكاكين... ليحمل أحدهم... وعاد نحو... كنت حينها قد قمت... متحامل الآلام... محاولا مباغتته... حتى الوصول إلى الدرج... فربما أستطيع هذه المرة فتح السطح... ركضت بين الرفوف... وبعد تعبي... اختبأت وراء إحداها... فتعثرت وسقط الكتاب من يدي... تقربت منه... لأجده قد فتح على صفحة... كانت هي طريق خلاصي الجزئي منه... كان مكتوب فيها دندنة لزوجته... وقد أجبر ابنة أخيه أن تعيدها... كلما شعر بالغضب... وحلما عرفت ذلك...

رحت أدندنها وبداخلي أمنية أن يفلح ذلك معي...

- وبعد سماعه تلك الدندنة... جلس على الكرسي... وراح يرددها هو الآخر... وثبت في مكانه... فكانت فرصتي للهرب... أخذت أحد السكاكين الحادة... وأسرعت بتسلق الدرج... وفتحت ذلك السطح اللعين... لكن... بمجرد خروجي... وجدته قد سابقني في الخروج... ليحرق كل شيء يخص ابنة أخيه... ثم يتوجه إلي قائلا:
- غفرت لك... بدندنة حلوتي... هذه المرة...
- لكن إن عدت مجددا فلن أغفر لك أبدا...
- وإياك المحاولة...
- فخلاصها لن يكون سهلا... كما تظن...
- ثم أطلق تلك القهقهة... المترددة مع خلاء ذلك المكان... للحظات ولم يعد...، حينها هرعت

إلى غرفتها... أبحث عن بقايا لها... ربما أجد طريقا.. لما طلبت مني... بين تلك الجدران المحروقة المتبقية... فتذكرت... ركن المنزل... الذي كانت تجلس فيه... فطرقته... لأجد أنه مختلف الصوت... فيه ما هو مجوف... فكسر ذاك الغلاف الإسمنتي لأجد ناي ذهبي... معه نوطات موسيقية... ومذكرة لها... مكتوب فيها إنه اللحن الذي يكتب حريتي... لكنني لا أستطيع عزفه...

- حاولت العزف عليه... مرات ومرات... حتى استقام اللحن معي فرحت أعيده... لأسمع صراخا... وكأن أحدهم يحترق... تبعت ذلك الصوت لأجده هو... يقف موجوعا من ذلك اللحن... فعمدت على إكمال ذلك... حتى رحل... رحل للأبد...

- أما باقي الكتاب فكان فيه جحيم له... سيعيشه... وقد عاشه من قبله الكثير... فكان هو قاتل شقيقه بعد معرفته بابنته... وعاقب ابنته بذنبه وذنب زوجته... وأحرق والده... بعد محاولته بالإفصاح عن الحقيقة... وكان ذلك الرجل المحروق الذي ظهر طيفه لي بالغرفة التي تحت المنزل... أما عشيقته... لم يكن سبب موتها السل... أو البرد... بل كان فيروس قد حقنه بها... كلما مضى الوقت عليه فيها سلب منها حياتها...
- كان في ظاهره أمام الناس... الطيب... المثقف... الخلوق... لكنه وحش يختبئ وراء اسمه ذاك... يبعث حروقه لمحبيه... ويقتل من حوله.
- أما "غدق" فكانت نقطة النهاية لحياة ذلك المتجبر... فقد فعلت ما كان يجب فعله منذ

زمن... فخسارتها لطفولتها وحريتها... جعلها تتمرد على كل قوانين الطبيعة كما قالت... وجعلت ذلك الرجل... يقف أمام حياته النذلة... ليودعها رغم حبه للخلود فيها... وأن يدفع ثمن مكره وألمه لمربيتها... فقد قالت بحروفها التي تركتها بين ثنايا ذلك الحائط أنها لم تستطع رؤية مربيتها وهي تموت... مع أنها كانت تظن أن موتها من برد غرفتها... لكن الحقيقة غير ذلك...

- كان موت عمها المزعوم بأبيها على يدها... حيث أنها خلطت عدة أدوية ووضعتها بقهوته... ليتوقف قلبه مباشرة بعد شربها... صحيح أنها كانت بريئة... لكن وجهها ولد فيها نقطة الانتقام... لنفسها التي بقيت تحت العار الذي أتت به والدتها بإذن من زوجها... وموت مربيتها التي حاربت لتربيتها حتى آخر نفس

لها... ودون دراية منها انتقمت لوالدها... الذي مات بأبشع صورة... فقد دبر موته بأن عزمه للعشاء في بيته... وقد شكت زوجته أمره... حيث أنها أخبرته بما طلب منها... وهي ابنتها... وكان حقه... كما كان حقها هي... إلا أنها ما كانت تريد موته... أما زوجها فلم يستطع تحمل غيضها وخوفها من فقدان ابنتها... فأقدم على قتله... بعد أخذه إلى غرفته المخفية تلك...

- كان يوم بليد بجوه... قاهر بحقيقته... مشهده ظالم كسيده... حيث دعي الشقيق إلى العشاء... فأصبح عشاءَ لموته... بعد تقطيعه بأبشع طريقة... وأخذ للذكرى... صورة حبيبته وسيجارته... وقطع يده التي أشار بها على زوجته...

- وقد ذكر في مذكرته العاصية تلك... أنه كان يستلذ بعذابه وصراخه... كان أسعد بشر كما قال... بعدما خط حروف فعلته تلك بدمائه... كأنه مريض نفسيا... لم يرحم من حوله... ولا حتى نفسه... فقد قهرها بذكريات كاذبة... وجعل لنفسه خادما لجحيمه... ليعيش ذلك العرس الجنائزي بكل سعادة... ودون أن يشعر بحركة ضمير خاطئة... كان يطبق فلسفته الطاغية على عالمه... ويجرب جرمه في أساور من حروف ذهبية... قد خرج بعضها مغدورا لكي يطرق مسامع الناس... لكن واقعه... جحيم... يتأجج بحثا عن سعادته الميتة منذ الأزل... ليبني ذلك المعبد المظلم على قناعته... أنه شخص عدل... لا سيئة فيه...
- ووضع الألوان كلها في كفة واحدة... لكي يرسم لوحته بغير فرشاة... ويكتب تاريخه

بغير إنجاز... ورغم ذلك... فكل ذلك الجبروت أطبقت عليه أنامل صغيرة... بعزف متكامل... يذكره بعمله الشنيع ذاك... ثم تعزم بأن نضع حدا لكل المعاناة... وتقف هي خلف ذلك الألم... لتربيه بين لون معدوم الذوق بالسيئة لها... وحداد لوحتها المنكسرة على حياتها تلك... وطقوس ذلك المعبد اللعين... حتى تكمل لشيطان بشري شعائره الإجرامية... لكن بغير التي اعتلا عليها... وتشعل أناملها كشموع لغد ربما كانت تنظر في ظلمته حريتها... التي كانت موقينة أنها ستكون في عالم آخر... على لحن أهدئ وأريح...

- لم تنسي فضائل من حولها... ولم تمل عتو رياح الألم بها... فما نست تلك الأمنيات التي اختفت تحت ظل الليل المنطوي على حياتها البريئة... ولم تزعزعها تلك الأرواح المنكسرة

إلا تمنيا... فرغم كل ما عاشته... هي الآن نقف هناك... تحت ستائر الشمس المدلات على جمالها... مناغمة صدقها مع صفاء ذلك النور... حاكية أحلامها بدون خوف... حتى تلك الأماكن التي كانت تستكن إليها حين وجعها... لم تخنها وحفظتها... كانت صادقة... صافية معها... كان لحنها أجمل من لعزفه أكبر السنفونيات العظيمة...

- هناك تحت ضياء شمس دافئ... تنام بغدق طيبتها براحة تامة... رغم ما تركت من أشواق وراءها... إلا أنها علمت غيرها شيئا أجمل مما محو عليه... والذي كان... النظر للحياة بدقة أكثر... وعدم التوهم... والهروب إلى الخيال... وأن الحياة ليست جسدا متحركا فقط... بل هي حياة روح مع الأمل... حياة روح لا تنظر شيئا

مما أعطت... بل تريد أن تدرك ما يمكنها فعله... رغم كل المقاسي.

- فحتى الصبح... لا بد من أن ينتظر في فصول عدة لأن يحين الربيع... كي يدرك ما قد قدمه في كل إطلالة... أما هي فرغم كل ذلك السواد والظلام الذي عاشته... لم يكسر بياض روحها ذلك اللون اللعين...
- بقيت كقطرة ندى... على الورد شذاه... تميزها لمعتها بعين الشمس ولين طينها لجذع انتظر الحزن لفترة...، أما أنا فتعلمت سر الحياة...وسر الصمت... وأن المكان المهجور... لا يعني خلائه مما كان فيه...فإن لم يحوي بشرا يحملون ذكرياته... فإنه يحوي أوراحا بقيت متعلقة بتلك الجدران... أو الأوراق والأشجار...فحتى الشيم هناك بات يعرف ما معنى الانتظار والشوق...

والساعات هي الشاهد الوحيد على كل حدث... وأن الجدران رغم وصفها بأنها صماء... إلا أنها تفهم وتخفي في ذاكرتها ما نسيه كل البشر... كما أنني عشقت الفن... بعدما كدت أن لا أفهم له سبيلا... فمعظم الفنون... هي لوحة... أو صورة... أو حرف... ينطق به داخلنا... لنحكي أشياء لا يمكن لكلمات وصفها... فمنذ عرفتها عشقت الألوان والرسم... والقصة والسرد... والتصوير والكتابة بحروف لست أجد لها نورا... إلا أن تخرج... وأن أجمعها ولو حتى بمذكرتي الصغيرة... فربما هي الأخرى تنتظر الحرية... فتفتح بين يدي هاوي... فيسترسل بحرفها إلى باب شغفه... لتنال شرف الدفتين... وتروى بدون صمت... بل تسير من طريق

إلى طريق... ومن لسان... إلى لسان... تعرض من شارع إلى شارع...

- صحيح أن بعض الأمنيات... بدت بعيدة لي... لكنها الآن لم تعد تظهر بعينه كذلك... فاليقين... لا يكسره شيء... رغم الألم فلا بد من صباح للحرية... وكل الأحلام لا بد من بزوغها مع فجر ذلك الصباح.